كتـــــاب
منـاقب سـيّدنا الإمام مالك

تــأليف
العلامة الشيخ عيسى بن مسعود الزواوي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

صوره و رفعه أبو عبد البر كاوا محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين منتهى حمد الحامدين، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ورضي الله عن الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد، فإنه لما جعل الله العلم أفضل الأعمال وبه تُنال أفضل الأحوال وترفع الدرجات وتضاعف الحسنات، ولا تصحّ الطاعة إلا به ولا اجتناب المعاصي إلا بعد حصوله، وشرّف العلماء وكرّمهم، وأعلى منازلهم وعظّمهم، وجعلهم سادة خلقه وهداة إلى معرفة حقّه وكان أفضل العلماء طراً وأعظمهم عند الله منزلة وقدراً، من اصطفاه بنبوّته واجتباه لرسالته نبينا محمد ﷺ، وأمره بالتبليغ إلى من أرسل إليه، والبيان لما أنزل عليه، فبادر ممتثلاً لطاعته وقام بأعباء رسالته فبلّغ ونصح وبيّن وأوضح وأكمل الله به الدين، وأتمّ النعمة وشهد له بالتبليغ أفضل الأمة، فقبضه الله سبحانه إليه واختار له ما لديه وترك الشريعة غرّاء والملة بيضاء والجادة ميثاء، فقام أصحابه بشريعته أحسن القيام وجاهدوا أنفسهم في اتّباعه جهد الكرام ففازوا باتباعه، ثم مضوا بسبيلهم وقد علم التابعون سيرهم وأحوالهم وضبطوا أقوالهم وأفعالهم وعرفوا سيرهم وأخبارهم، فسلكوا سبيلهم واتّبعوا أمرهم ففازوا بما حازوا من فضائلهم واهتدوا لما سلكوا سبيل أوائلهم.

ثم اختلفت الآراء بالعراق وكثر بينهم الشقاق وقلّ الاتفاق، وصارت العلماء ما بين محدث لا رأي له، وذي فقه لا سنّة معه، ووقع في الدين الزلل وظهر فيه الخلل وعمي إليه الطريق وعسر فيه التحقيق، فقيّض الله له من كريم هديه وأطيب موطنه مالكاً إماماً مهدياً وعالماً مرضياً وحافظاً لوذعياً وناقداً منتقياً، فنظر إلى الحالين وسلك الطريقين فجمع بين تصحيح الرواية وتحقيق الدراية، وغاص على درر المعاني واستخرجها ونقّح

أمّهات أصوله واستنتجها وأسّس قواعد العلم وأحكمها، وألّف فرائده ونظمها ونظر في مبهرجه فسبكه وفي خفي إبريزه فأبرزه وجمع من أشتاته ما تفرّق، ووصل من أوصاله ما تمزّق وأظهر من عيوبه ما خفي وبيّن من طرفه ما عمي، وصحّح من سقيمه ما أمكن وأطرى من غليله ما تعيّن ومهّد من قواعده ما توعّر وقيّد من شوارده ما تعسّر، وأسّس أصوله ورتّب فصوله وأوضح السبيل للسالكين وفتح الباب للمؤلفين، واقتدى الناس به واتبعوه واستحسنوا طريقه فسلكوه ففاتهم بالتقدّم وبفضل العالم على المتعلّم، فصارت العلماء به اتباعاً والفضل له إجماعاً لقول النبي ﷺ: «**من سنّة سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً**». فإن قيل: كيف قلتم إن مالكاً فتح الباب للمؤلفين، وقد ألّف قبله جماعة كعبد الملك بن جريج وسعيد بن أبي عروبة وعبد العزيز بن أبي سلمة وأبي بكر بن محمد وأبي حنيفة على الخلاف في المتقدّم منهم إلى ذلك؟ قلنا: أولئك لم تكن تآليفهم على مثل الموطأ في الجمع بين الحديث والأثر والفقه وصحيح النظر وترتيب الكتب ووضع التراجم وحسن السياق في التأليف وترتيب التصنيف، هذا مما لم يسبق مالكاً أحداً إليه ولا وقع نظر غيره قبله عليه فلذلك ظهر تأليفه واشتهر وشاع ذكره وانتشر مع ما قرنه الله به من التوفيق وسعادة مؤلفه بحسن نيّته على التحقيق، وجد في أثره طائفة نجباء وأئمة فضلاء وأخيار علماء فأحسنوا وأجادوا وبنوا على قواعده وشادوا وصاروا قادة في العلم وسادوا، ثم تقاصرت الهمم وتناكلت الشيم وتناقضت الحكم وتراكمت الظلم ونزل الناس عن درجة الاجتهاد إلى درك التقليد وعز حفظ العلم عن تحصيله بالكتاب وتحصينه بالتجليد، وقلّ من يقتدي به وتطمئن القلوب إلى كلامه. فاعتمد الناس على تقليد من عرف بالعدل واشتهر قديماً بالعلم والفضل، وركن كل أحد إلى ما بلغه واقتصر على ما رآه أو سمعه وليس كل نقّاد بصيراً ولا كل متصدّ خبيراً، بيد أن الوقت لا يخلو عن مميز أو فطن متحرر متحيّز رأيت أن أنبّه على بعض فضائل هذا الإمام وأذكرها وأعرف بعظيم منزلته وأشهرها، وأجلب من ذلك ما اشتهر في صدر الأمة وتفرق في كتب الأئمة ليكون ذلك تذكرة للغافلين ونصيحة للمؤمنين وحجة للموفقين، ويعرف فضله من جهل قدره ويتنبّه من يظن غيره ويعلم منزلته من جهل مكانته، وأذكر شيئاً من خصائص مذهبه وعموم نفعه وسداد رأيه وحسن سياسته وكمال مروءته وتمام معرفته ورياسته ومعرفته بأحوال الناس وعوائدهم وتصرفهم في المعاملات ومقاصدهم، وتعظيمه للنبي ﷺ وصحبه وقيامه بالحق وقوله به وذبّه عن الشريعة وتعظيمه لها ودرئه المفاسد عنها وتحصينه حوزتها، وتشديده في سد أبواب المفاسد ودرئها واتساعه في فتح أبواب المصالح وتيسرها وصحة دينه وكثرة اتصافه ووفور

عقله وكمال أوصافه، كل ذلك على وجه الإيجاز والاختصار دون التطويل والإكثار وكلما أذكر من ذلك وأورده وأسنده إلى الأئمة وأسرده، فمن كتب العلماء نقلته ومن أقاويلهم جمعته لكن تركت الاعتزاء إليها اختصاراً، وحذفت الأسانيد استكثاراً إذ ليس فيما نقلته شيء غريب ولا أمر مستنكر عجيب، فإن فضل هذا الإمام أشهر وذكره أسمى وأظهر لكن رجوت من الله بذلك المثوبة وعليه توكلي وبه المعونة، فأقول: وبالله التوفيق.

فصل

لا خفاء ولا مرية عند أحد من العلماء ولا من ينسب إلى الفضلاء، أن طيبة مدينة رسول الله ﷺ مهبط الوحي ودار الهجرة ومعدن الرسالة وفيها ظهر الحق وانتصر وقام الدين واشتهر، ومنها فتحت البلاد وتواصلت الأمداد وبها تربة رسول الله ﷺ، وفيها ذاته الكريمة وقبره الشريف عند الله وقبرا صاحبيه الكريمين على الله أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيها منبره ومسجده المؤسّس على التقوى وفيها أتربة أكثر أصحابه والأخيار من عشيرته وأشياعه والشهداء من المهاجرين الأوّلين وأنصار الدين والإيمان من قبلهم، وفيها كان الحق ناصعاً والدين خالصاً وعلى أنقابها ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجّال ولا يصبر على لأوائها وشدّتها أحد إلا كان رسول الله ﷺ له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني شفيع لمن مات به**». وقال عليه الصلاة والسلام: «**المدينة حرم ما بين عير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**». وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**». وبها أمر رسول الله ﷺ فكان مثواه بها حياً وميتاً والصلاة في مسجدها خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وافتتحت بالقرآن وافتتحت سائر البلاد بالسيف عنوة أو صلحاً، ودعا رسول الله ﷺ بالبركة فيها وفي تمرها وصاعها ومدّها وقال: «**إنها تنفي خبثها وينصع طيبها**» وقال: «**ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي**» وقال: «**اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدّها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة**»، وقال في جبلها أُحد: «**هذا جبل يحبنا ونحبّه**»، وقال: «**اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه**»، وقال: «**لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أبدلها خيراً منه**»، وقال: «**تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحلمون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وتفتح الشام**

فيأتي قوم يبسون (يقال بست الناقة وأبستها إذا سقتها وزجرتها وقلت لها بس بس بكسر الباء وفتحها يبسون) **فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**». وقال: «**اللهم إن إبراهيم حرّم مكة وإني أحرّم ما بين لابتيها**» فهي حرم الله ومستقر رسول الله ﷺ وأفضل بلاد الله وبها الخيرة من عباد الله وبها ثبت الدين واستقر ومنها تفرّق وانتشر وأمر أهلها يسند ومنهم ستمد وفيها كانت الخلافة بعد النبوة وقلوب المسلمين متفقة وكلمتهم متحدة وبها كانت السبعة الفقهاء من التابعين المشهورين بالفضل والعلم المخصوصين بهذا الاسم بحيث لا بدعة تذكر ولا سنة تنكر، وهم: سعيد بن المسيب القرشي. وسليمان بن يسار. والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق. وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وعروة بن الزبير بن العوّام. وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري. وفيها كانت السنّة متواترة يرويها جيل عن جيل وتنقلها جماعة عن جماعة وخلف عن سلف، ولم يكن ذلك في غيرها من سائر البلدان ولم يزل بها الدين قائماً والسنّة معلومة والعلماء متوافرين، إلى أن أنبت الله فيهم في أقرب عصر وأقرب مضواء بالمدينة قبل تمام المائة سنة من الهجرة النبوية من أنفسهم وأنفسهم مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني، نشأ بينهم غلاماً عاقلاً حافظاً ثبتاً ضابطاً متقناً برّاً تقياً، فتعلّم منهم وجمع علومهم وحفظ آراءهم ونقل آثارهم وعرف مذاهبهم وأحكم قواعدهم وأخذ العلم عن نحو من مائة شيخ انتقاهم وارتضاهم جملة، فما لبث فيهم إلا وقد تبين فضله واشتهر علمه ونبل قدره وعظمت منزلته وعرفت مكانته وظهرت سيادته، فأقروا بفضله وأذعنوا لعلمه فساد جميع أقرانه وفاق أهل زمانه، وسمي: عالم المدينة وإمام دار الهجرة، واشتهر خبره في الأمصار وانتشر في سائر الأقطار وضربت إليه أكباد الإبل وارتحل الناس إليه من كل مصر وأتوه من كل قطر، فجلس لتدريس العلم وهو ابن سبعة عشر سنة وأشياخه متوافرون فمتع الله المسلمين بطول حياته، فعاش قريباً من تسعين سنة ومكث يفتي الناس ويعلّمهم نحواً من سبعين سنة وشهد له التابعون بالفقه والحديث واحتاج إليه معلّموه وسألوه عن أمر دينهم.

قال رضي الله عنه: فلا رجل كتبت عنه إلا كان يأتيني فيستفتيني، واشتهرت عنه رواية العلم في الأقطار ونقل عنه إلى سائر الأمصار، فروى عنه أهل الحجاز وأهل اليمن وأهل العراق وخراسان والشام ومصر وإفريقية والأندلس، روى عنه من الأئمة المشهورين والعلماء المذكورين: محمد بن شهاب الزهري إمام السنّة. وربيعة بن أبي عبد الرحمن فقيه أهل المدينة. ويحيى بن سعيد الأنصاري. وموسى بن عقبة، هؤلاء كلهم أشياخه .

وسفيان بن سعيد الثوري إمام أهل العراق. وسفيان بن عيينة عالم أهل مكة. وأمير المؤمنين هارون الرشيد العباسي. ومسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي. وعبد الملك بن جريج. وعبد الرحمن بن عمر. والأوزاعي إمام أهل الشام والليث بن سعد إمام أهل مصر. ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب القرشي أحد علماء المدينة. ومحمد بن إدريس الشافعي. وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام. وصاحبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي. ومحمد بن الحسن الشيباني. وعبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام أحمد بن حنبل. ويحيى بن يحيى النيسابوري شيخ مسلم بن الحجاج. وأبو رجاء قتيبة بن سعيد البلخي شيخ البخاري ومسلم رحمهما الله. وعبد الله بن وهب القرشي المصري. وعبد الرحمن بن القاسم المصري. وعبد الله بن عبد الحكم المصري. وأشهب بن عبد العزيز العامري المصري. ومحمد بن إسحاق بن يسّار صاحب التيسير. ووكيع بن الجراح الكوفي. ويحيى بن سعيد القطّان البصري. وعبد الله بن يوسف التنيسي شيخ البخاري. وعمر بن عبد العزيز بن عبد الله العمري. وعبد الرزاق بن همّام الصغاني. والفضيل بن عياض الزاهد. وأبو نعيم الفضل بن دكين الكوفي وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الدمشقي. وعبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المدني. وعبد الله بن المبارك الخراساني. وشريك بن عبد الله النخعي القاضي. وعبد الملك بن الماجشون المدني. وسمرة بن عيسى. وقيل: ابن عبد الله قاضي القيروان. وأبو بسطام شعبة بن الحجاج العتكي. وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري. وأبو إسماعيل حمّاد بن زيد بن درهم البصري. وأبو نصر بشر بن الحارث الزاهد. وإبراهيم بن أدهم الخراساني. وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث بن ماء السماء القيرواني. والوليد بن مسلم الشامي. وأبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري. وأسد بن الفرات الإفريقي. وعبد الله بن غانم قاضي إفريقية. وعبد الله بن رياء التونسي. وزياد بن عبد الرحمن الأندلسي. ويحيى بن يحيى الأندلسي. وعبد الله بن مسلمة العقبي البصري.

وجمع كثير غير هؤلاء يزيدون على ألف شيخ ممن أخذ عنهم العلم وروى عنه الحديث خلاف من لم يأخذ عنهم ممن لا يحاط بهم كثرة، ولا يحصون عدة تأوّل فيه التابعون وتابعوهم أنه العالم الذي بشّر به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره. قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد: وهو حديث لا شك فيه وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة**». وفي حديث آخر: «**ليس على ظهر الدنيا أعلم منه فيضرب الناس إليه أكباد الإبل**». وفي حديث آخر: «**يوشك**

الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة». قال ابن عيينة: كانوا يرونه مالكاً. قال ابن مهدي: يعني التابعين وتأوّل ذلك فيه أيضاً عبد الملك بن جريج وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح والأوزاعي. وقال ابن عبد الرزّاق: كنا نرى أنه مالك ولم يعرف هذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه، قال أبو مصعب: كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام يعني لطلب العلم. وقال أبو مصعب: رأيت هنا معن بن عيسى جالساً على عتبة باب مالك وما ينطق مالك بشيء إلا كتبه، واستفتاه زيد بن أسلم أحد أشياخه في مسألة من أمر دينه وكان شيخه ربيعة يرجع إليه في غير شيء، واجتمع الناس عليه وتركوا ربيعة على جلالة قدره وكانوا يسألون مالكاً أن يحدّثهم عن ربيعة وربيعة حاضر بمسجد رسول الله ﷺ فيقول لهم من أراد ربيعة فها هو ذاك ربيعة فيشير إليه في ناحية المسجد.

وقال يحيى بن سعيد القطّان: دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية، والناس حواليه سكوت لا يتكلم أحد منهم هيبة له ولا يفتي أحد في مسجد رسول الله ﷺ غيره، فجلست بين يديه فسألته فحدثني فاستزدته فزادني ثم غمزني أصحابه فسكت. وقال أبو هرمز لخادمته وقد أخبرته أن مالكاً بالباب: أدخليه فإن ذلك عالم الناس، وقال مطرف: كان سفيان بن عيينة يجلس في حلقة مالك يسمع الحلال والحرام والحديث المعمول به لا يتكلم بحرف وإذا خرج حلق لنفسه، وكان سفيان الثوري يتبعه في الحج فما فعل مالك فعل مثله، واستدعاه أمير المدينة إلى الحضور مع معلميه في المشورة فامتنع حتى شاور في ذلك من شاور من التابعين وأمروه أن يحضر ورأوه لذلك أهلاً، قال رضي الله عنه: ما جلست للفتيا والحديث حتى شهد لي سبعون شيخاً. وقال حماد بن زيد لرجل جاءه في مسألة اختلف الناس فيها: يا أخي إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة وصر إلى قوله فإنه حجة مالك إمام الناس. وقال حماد بن سلمة: لو قيل لي اختر لأمة محمد ﷺ إماماً يأخذون عنه دينهم لا بدّ من ذلك لرأيت مالكاً لذلك موضعاً ورأيت ذلك صلاحاً للأمة. وقال الليث بن سعد: علم مالك علم تقي مالك أمان لمن أخذ به من الآثام، وقال ابن معين قال سفيان بن عيينة: من نحن عند مالك؟ إنما كنا نتبع آثار مالك وننظر إن كان أخذ عن شيخ كتبنا عنه وإلا تركناه. وقال رجل لسفيان بن عيينة: يا أبا محمد رجل أراد أن يسأل عن مسألة رجلاً من أهل العلم ليكون له حجة بينه وبين الله، فقال: كان مالك ممن يجعله الرجل حجّة بينه وبين الله، فقيل له: قد مضى مالك، فقال: هيهات هيهات هدى الناس.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق: أنه دخل عليه قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه فسألوه أن ينصب لهم رجلاً يرجعون بعده إليه في أمر دينهم، فقال: عليكم بقول أهل المدينة فإنها تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد، عليكم بآثار من مضى فإني أعلمكم إني متبع غير مبتدع عليكم، بفقه أهل الحجاز، عليكم بالميمون المعين المبارك في الإسلام المتبع آثار رسول الله ﷺ، فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلاً متبعاً مريداً لا يميل به الهوى ولا تزدريه الحاجة ولا يروي إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله ﷺ، فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام وإن خالفتموه ضللتم وهلكتم، ألستم تقولون: إني هيىء من العلم غير محتاج إلى أحد من الخلق فإنه قد أخذ عني كل ما يحتاج إليه فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا، أي أحذركم عذاب الله يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٨ و٨٩]. أحذّركم فقد أرشدتكم إلى رجل نصّبته لكم فإنه أمين مولود في زمانه، قالوا: من هو بيِّنه لنا؟ قال: ذلك مالك بن أنس، عليكم بقول مالك ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني بريء من ظنهم وتخرصهم ومن رواة السوء منهم، اللهم إنك تعلم أنه قد قيل عن عيسى ابن مريم ما لم يقل وروي عن مالك ما لم يكن، وقيل عن عزير ما لم يقل وروي عنه ما لم يكن، وقيل عن علي بن أبي طالب ما لم يقل وروي عنه ما لم يكن، فمن روى عني ما لم أقل فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين، رأيت هذا معزياً إلى كتاب أبي نعيم. ولما نعي مالك إلى ابن عيينة قال: والله ما خلف على وجه الأرض مثله، ولما قدم أسد بن الفرات من إفريقية على مالك المدينة وسمع منه الموطأ وكان أصحاب مالك يهابون مالكاً أن يسألونه، وكانوا يقولون لأسد: سله عن كذا سله عن كذا سله عن كذا، فسأله ذات يوم عن مسألة فأجابه ثم سأله فقال له: هذه سلسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق، فخرج إلى العراق وكان عنده محمد بن الحسن، فلما نعي مالك بالعراق ارتجت له العراق فندم أسد على تركه ومفارقته، وأجمع رأيه على الرجوع إلى مذهبه لما رأى من تعظيم أهل العراق له وعظم مصيبتهم بموته، فجمع أسئلة كثيرة من أهل العراق فأتى راكباً إلى أصحاب مالك فسأل عنها ابن القاسم فأجابه عنها برأي مالك وعلى أصوله فخرج بها أسد إلى إفريقية، فحصلت له بها سيادة في العلم ونيل قدره حتى جمع له ابن الأغلب أمير إفريقية بين القضاء وإمرة صقلية وهو أوّل من جمع له بين القضاء والإمرة. وقال ابن وهب: لقيت ثلثمائة وستين عالماً ولولا مالك بن أنس والليث بن سعد لضللت في العلم.

وقال أحمد بن حنبل: رحمة الله على مالك، القلب يسكن إلى حديثه وإلى فتياه

حقيق أن يسكن إليه، مالك عندنا حجة لأنه شديد الاتباع للآثار التي تصح عنده، وكان عبد الرحمن بن القاسم يقول: إنما أقتدي في ديني برجلين مالك بن أنس في علمه وسليمان بن القاسم في ورعه. وقال عبد الله بن المبارك: ما رأيت أحداً ممن كتب عنه علم رسول الله ﷺ أهيب في نفسي من مالك، ولا أشد إعظاماً لحديث رسول الله ﷺ من مالك، ولا أشحّ على دينه من مالك فلو قيل لي: اختر للأمّة إماماً، لاخترت لهم مالكاً وقال ابن مهدي: ما أدركت أحداً إلا وهو يخاف هذا الحديث إلا مالك بن أنس، وحماد بن سلمة فإنهما كانا يجعلانه من أعمال البرّ، وقال يحيى بن سعيد القطّان: مالك أثبت القوم مالك رحمة لهذه الأمة. وقال ابن أبي حازم للدراوردي: أسألك بربّ هذه البنية أرأيت أعلم من مالك؟ قال: اللهم لا، وقال أبو قدامة: مالك أحفظ أهل زمانه، وقال حسين بن عروة، قال مالك: قدم علينا الزهري فأتيناه ومعنا ربيعة فحدثنا نيفاً عن أربعين حديثاً ثم أتيناه من الغد فقال: انظروا كتاباً حتى أحدّثكم منه، أرأيتم ما حدثتكم أمس أي شيء في أيديكم منه؟ فقال له ربيعة: هٰهنا من يرد عليك ما حدثت به أمس، قال: ومن هو؟ قال: ابن أبي عامر، قال: هات، فحدثته بأربعين حديثاً منها، قال: ما كنت أظن أنه بقي من يحفظ هذا الحفظ غيري. وقال عتيق بن يعقوب سمعنا مالكاً يقول: حدثني ابن شهاب بضعة وأربعين حديثاً ثم قال: إيه أعد علي فأعدت عليه أربعين وسقطت البضع، وقال ابن أبي مريم لابن معين: سفيان أرفع عندكم أو مالك؟ قال: مالك، قلت: أليس مالك أعلى أصحاب الزهري؟ قال: نعم، قلت: فعبيد الله أثبت في نافع أو مالك؟ قال: مالك أثبت الناس، وقال أبو عبد الله بن الحباب: حفظ مالك مائة ألف حديث، وقال ابن مهدي: ما رأيت أثبت عقلاً من مالك، وقال الليث بن سعد: والله ما على وجه الأرض أحبّ إليّ من مالك. قال الراوي عنه: وأحسبه قال اللهم زد من عمري في عمره، قال: وما أقول ذلك إلا احتياطاً للعين.

وكان الأوزاعي معظماً لمالك وإذا ذكره يقول: قال عالم العلماء، قال عالم أهل المدينة، قال مفتي الحرمين، وقال ابن عيينة: إن بالمدينة من بورك له في عقله يعني مالكاً. وقال ابن المبارك: ما رأيت رجلاً ارتفع مثل ما ارتفع مالك من رجل لم يكن له من كثير صوم ولا صلاة إلا أن تكون سريرة، وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما أدركت أحداً من علماء الحجاز إلا معظماً لمالك، وإن الله لا يجمع أمة محمد في حرمه وحرم نبيه إلا على هدى. وقال ابن إسحاق: مالك ملك لنفسه صحة مالك رضي مالك كثير الانتفاع مذهبه الآثار ذكر ذلك عنه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد، وقال ابن القاسم: قال مالك: كنا نختلف إلى ربيعة فما يحب منا إلا أربعة ـ أكبرنا عجلته المنية يعني كثير بن

فرقد، ـ والثاني غر بنفسه وأضاع علمه يعني عبد الرحمن بن عطاء ـ والثالث شغل نفسه بالأغاليط، وربما قال: أفسدته الملوك يعني عبد العزيز الماجشون، وسكت عن الرابع فكنا نرى أنه يعني نفسه، قال أحمد بن صالح: ولم يكن فيهم مثل مالك.

وقال ابن لهيعة: قدم علينا أبو الأسود سنة إحدى وثلاثين ومائة، فقلنا له: من للرأي بعد ربيعة بالحجاز؟ فقال الغلام الأصبح وأبو الأسود: هذا محمد بن عبد الرحمن ابن عم عروة بن الزبير وكان عروة ربّاه وكان يقال له يتيم عروة وهو من جملة شيوخ مالك رضي الله عنهما، وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: بلغنا أنك تقول: مالك أعلم من أبي حنيفة، فقال: ما قلته، بل أقول: أعلم من أستاذ أبي حنيفة يعني حماد بن أبي سليمان، وقال عبد الرحمن بن مهدي: أيضاً مالك أفقه من الحكم وحماد، وقال عبد الرحمن بن مهدي: أيضاً سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنّة، والأوزاعي إمام في السنّة وليس بإمام في الحديث، ومالك إمام فيهما جميعاً، وقال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، وقال ابن وهب سمعت منادياً ينادي: ألا لا يفتي الناس إلا مالك بن أنس وابن أبي ذئب. وقال الشافعي قال لي محمد بن الحسن: أيما أعلم صاحبنا أم صاحبكم؟ يعني مالكاً وأبا حنيفة، قلت: على الإنصاف، قال: نعم، قلت: أنشدك الله من أعلم بكتاب الله صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قلت: من أعلم بالسنّة صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قلت: فأنشدك الله من أعلم بأقاويل رسول الله ﷺ والمتقدمين صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: صاحبكم، فقلت: فلم يبق إلا القياس ولا يكون إلا على هذه الأشياء، فاتفق رأي الشافعي ومحمد بن الحسن على تقديم مالك على أبي حنيفة في معرفة الكتاب والسنّة والآثار وقد شاهدهما محمد بن الحسن وروى عنهما، وكان محمد بن الحسن يقول: سمعت من مالك سبعمائة حديث ونيفاً إلى الثمانمائة لفظاً وكان أقام عنده، وكان محمد بن الحسن إذا وعد الناس أن يحدّثهم عن مالك امتلأ موضعه وكثر عليه الناس، وإذا حدّث عن غيره لم يأته إلا الفقير فقال لهم: لو أراد أحد أن يعيبكم بأكثر مما تفعلون ما قدر إذا حدثتكم عن أصحابكم إنما يأتي الفقير، أعرف فيكم الكرامة، وإذا حدثتكم عن مالك امتلأ علي الموضع، وقال إبراهيم بن طهمان: أتيت المدينة ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة فسلمت عليه فقال عمر: كنت هناك فسمعت له فقال: هل كتبت عن مالك بن أنس شيئاً؟ قلت: نعم، قال: حدثني بما كتبت عنه، فأتيته به فدعا بقرطاس ودواة فجعلت أملي عليه وهو يكتب. وقال أبو داود السجستاني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: مالك اتبع من سفيان، وقال أبو زرعة: سمعت أحمد بن حنبل سئل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرأي، فقال: مالك

أكبر في قلبي، قلت: فمالك والأوزاعي؟ قال: مالك أحبّ إلي وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل: فمالك وإبراهيم النخعي؟ قال: هذا كأنه سبع ضعه مع أهل زمانه، وقال أحمد بن حنبل: إذا لم يكن في الحديث إلا الرأي فرأي مالك. وقال أبو عبد السلام بن عاصم قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله رجل يريد أن يحفظ حديث رجل بعينه؟ قال: يحفظ حديث مالك، فقلت: برأي من؟ قال: رأي مالك، وكان ربيعة بن أبي عبد الرحمن إذا رأى مالكاً قال: جاء العاقل، وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأيت محدثاً أحسن عقلاً من مالك.

وقال المروزي: كنت عند حماد بن زيد فنعي له مالك، فقال: أتحقق عندكم ذلك؟ فقالوا: جاءت بذلك كتب التجار، فقال: اللهم أحسن علينا الخلافة بعده، وقال القعنبي: كنا عند حماد بن زيد فجاءه نعي مالك فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن والله ما خلف مثله، وقال سعيد بن عبد الجبّار: كنا عند سفيان بن عيينة فأتاه نعي مالك فقال: والله مات سيد المسلمين، وقال الشافعي: إذا ذكر الحديث فمالك النجم، وما أحد آمن على علم من مالك يريد بقوله فمالك النجم يعني قوله تعالى: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل: ١٦] والله أعلم. وقال الشافعي أيضاً: إذا جاء الحديث عن مالك فشد به يدك، وقال: مالك أمير المؤمنين في الحديث، وقال: مالك إذا شك في بعض الحديث تركه كله، وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما أقدم على مالك في الحديث أحداً، وقال يحيى بن سعيد: كان مالك إماماً في الحديث. وقال سفيان بن عيينة: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ولا يحدّث إلا عن ثقات الناس وما أرى المدينة إلا ستخرب بعده. وقال حسّان: كنا عند وهيب فذكر حديثاً عن ابن جريج ومالك بن أنس، فقلت لصاحب لي: اكتب ابن جريج ودع مالكاً وإنما قلت ذلك لأن مالكاً حي، فقال وهيب: تقول دع مالكاً ما بين شرقها وغربها آمن على ذلك عندنا من مالك والعرض على مالك أحبّ إليّ من السماع من غيره. وقال يحيى بن سعيد: ما في القوم أصح حديثاً من مالك، يعني بالقوم: الثوري وابن عيينة، قال: ومالك أحبّ إليّ من معمر، وقال البخاري: كان مالك إماماً روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري. وقيل لأحمد بن حنبل: مالك أحسن حديثاً عن الزهري أم سفيان بن عيينة؟ قال: مالك أصح حديثاً، قيل: فمعمر؟ فقدم مالكاً عليه إلا أن معمراً أكثر حديثاً عن الزهري، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي أيما أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء، وقال عمر بن علي: أثبت من روى عن الزهري ممن لا يختلف فيه مالك بن أنس، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول: مالك بن أنس ثقة أهل الحجاز وهو أثبت

أصحاب الزهري وإذا خالف أهل الحجاز مالك حكم بقول مالك، نعني الرجال نعني الحديث وهو أنقل حديثاً من الثوري والأوزاعي وأقوى في الزهري من ابن عيينة وأقوى من معمر وابن أبي ذئب.

وسئل علي بن المديني: من أثبت أصحاب نافع؟ قال: مالك وإتقانه وأيوب وفضله وعبيد الله وحفظه، وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني الرقي سمعت أحمد بن حنبل غير مرة يقول: كان مالك أثبت الناس في الحديث ولا تبالي أن تسأل عن رجل روى عنه لا سيما المدني، وقال يحيى بن معين: لا تبالي أن تسأل عن رجال مالك كل من حدّث عنه ثقة إلا رجلاً أو رجلين. وقال خالد بن جراد الأسلمي: ما رأيت رجلاً أنزع إلى كتاب الله عز وجل من مالك، وقال ابن وهب: وذكر اختلاف الأحاديث والروايات لولا أني لقيت مالكاً والليث لضللت، وقال عبد الرحمن بن مهدي: إذا رأيت حجازياً يحب مالكاً فهو صاحب سنّة. وقال وهيب بن خالد: أتينا الحجاز فما سمعنا حديثاً إلا نعرف وننكر إلا حديث مالك، وقال أيوب بن سويد الرملي: ما رأيت أحداً أجود حديثاً من مالك، وقال علي بن المديني: لم يكن بالمدينة أعلم بمذهب تابعيهم من مالك. وقال يحيى بن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه، وقال سفيان بن عيينة: ما كان أشد انتقاد مالك للرجال وأعلنه بشأنهم، وقال الشافعي رضي الله عنه: ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع من موطأ مالك، وقال عمر بن أبي سلمة: ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك إلا أتاني آتٍ في المنام فقال لي: هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً، وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ أو نحو هذا، وقال أبو عمّار: سألت أحمد بن حنبل عن كتاب مالك فقال: ما أحسنه لمن تديّن به، وقال ابن وهب: من كتب موطأ مالك فلا عليه أن لا يكتب من الحلال والحرام شيئاً. وقال يحيى بن عثمان: سمعت زيد بن أبي مريم وهو يقرأ عليه موطأ مالك وكان ابنا أخيه رحلا إلى العراق في طلب العلم، يقول: لو أن ابني أخي مكثا بالعراق عمريهما يكتبان ليلاً ونهاراً ما أتيا بعلم يشبه موطأ مالك. أو قال: ما أتيا بسنّة يجتمع عليها خلاف موطأ مالك، وقال مطرف: قال لي مالك: ما يقول الناس في موطآتي؟ قلت له: الناس رجلان محب مطرٍ وحاسد مفترٍ، فقال: إن مد بك العمر فسترى ما يريد به الله.

قال المفضل بن محمد بن حرب المدني: أوّل من عمل كتاباً بالمدينة على معنى الموطأ من ذكر ما اجتمع عليه أهل المدينة ـ عبد العزيز بن سلمة الماجشون وعمله كلاماً بغير حديث، فأتي به مالك فنظر فيه فقال ما أحسن ما عمل ولو كنت أنا عملت لبدأت

بالآثار ثم سددت ذلك بالكلام، فعزم مالك على تصنيف الموطأ فعمل من كان يومئـذ من العلمـاء الموطـآت، فقيل لمـالك: تتعب نفسـك بهذا الكتـاب وقد تشـركك فيـه النـاس وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأتي بذلك فنظر فيه ثم نبذه. وقال: لتعلمن أنـه لا يرتفع من هذا إلا ما أريد به وجه الله فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار ومـا ذكر منهـا شيء بعـد ذلك. وروي أن مـالكاً لمـا أراد أن يؤلّف فبقي متفكّراً في أي اسم يسمي بـه تأليفه، قـال: فنمت فرأيت النبي ﷺ فقـال لي: «**وطيء للناس هـذا العلم**» فسمى كتابـه بالموطأ وقال محمد بن رمح: حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم فنمت في مسجد النبي ﷺ بين القبر والمنبر، فرأيت النبي ﷺ قد خرج من القبر متكئاً على أبي بكر وعمـر رضي الله عنهما فسلّمت عليهم فردّوا عليّ السلام، فقلت يا رسول الله: أين أنت ذاهب؟ فقال: «**أقيم لمالـك الصراط المستقيم**»، فـانتهبت فأتيت أنـا وأبي مالكـاً فوجـدنا النـاس مجتمعين عليـه وقد أخـرج لهم الموطـأ أول ما خـرج. وقـال عبـد الله بن يحيـى القيسي الأندلسي، وكان صاحباً لابن وضاح وكان نعم الرجل مؤتمن على مـا يقول، قـال: رأيت في منامي النبي ﷺ يمشي في طريق وأبا بكر خلفه وعمر خلف أبي بكـر ومالـك بن أنس خلف عمر وسحنوناً خلف مالك، قال ابن وضاح: وذكرت ذلك لسحنون فسـرّ به، وقـال المثنى بن سعيد القصير: سمعت مالكاً يقول: ما بتّ ليلة إلا رأيت رسول الله ﷺ، ورأى سفيان بن عيينة كأنّ النبي ﷺ أعطى خـاتمه مـالكاً، وقـال مصعب بن عبد الله الـزهري: سمعت أبي يقول: كنت جالساً مع مالك في مسجد النبي ﷺ، فدخل رجل فقـال: أيّكم أبو عبد الله مالك؟ فقالوا: هـذا، فسلّم عليه واعتنقـه وقبّله بين عينيه وضمّـه إلى صدره. وقال: رأيت البارحة رسول الله ﷺ في هذا الموضع فقال: «**هاتوا مالكاً**» فـأُتي بك تـرعد فرائصك فقال: «**ليس بك بـأس يا أبـا عبد الله**» وكنّـاك وقال: «**اجلس**» فجلست، فقـال: «**افتـح حجرك**» ففتحتـه فملأه مسكـاً منثوراً وقـال: «**فبثّه في أمّتي**». فبكى مـالك طـويلاً وقـال: الرؤيـا تسر ولا تضـر إن صدقت رؤيـاك فهو هـذا العلم الذي أودعني الله. وذكـر عبد الرحمن بن أبي حاتم عن بشر بن أبي بكر أنه قال: رأيت في النوم أني دخلت الجنـة فرأيت الأوزاعي وسفيان الثـوري ولم أر مالكـاً فقلت: فأين مـالك؟ قـالوا: وأين مـالك؟ فقـال: فما زال يقـول: وأين مالـك رفع مـالك حتى سقـطت قلنسوتـه، وقـال أيضـاً عن محمد بن رمح أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام منذ أربعين سنة، فقلت: يا رسـول الله مـالك والليث يختلفـان في المسألـة فأيهمـا أعلم؟ فقال النبي ﷺ: «**مـالك مـالك ورث جدي**» يعني إبراهيم عليه السلام، وقال ابن الدراوردي: رأيت في النوم كأن قـائلا يقـول

لي: لو سئل مالك عمّا هو في الدقة مثل الشعر وفي الشدّة مثل الصخر لم يزل موفقاً ما كان يقول الكلام الذي كان يقوله.

وقال عبد الله بن يوسف حدثني خلف بن عمر قال كنت عند مالك وقال ابن دكين سمعت الشافعي يقول: قالت لي عمتي ونحن بمكة: رأيت في هذه الليلة عجباً، فقلت لها: وما هو؟ قالت: رأيت كأن قائلاً يقول: مات الليلة أعلم أهل الأرض، فحسبنا ذلك وإذا هو يوم مات مالك بن أنس فأتاه ابن أبي كثير قارىء المدينة فناوله رقعة فنظر فيها ثم وضعها تحت غطائه، ثم قام من عنده فذهبت أقوم من عنده فقال لي: اثبت يا خلف، فناولني الرقعة وإذا فيها رأيت الليلة في المنام كأنه يقال لي: هذا رسول الله ﷺ في المسجد فأتيت فإذا ناحية من القبر قد انفرجت وإذا رسول الله ﷺ جالس والناس يقولون: أعطنا يا رسول الله من لنا، فقال لهم: «**إني قد كنزت تحت المنبر كنزاً وقد أمرت مالكاً أن يقسمه فيكم فاذهبوا إلى مالك**». فانصرف الناس وبعضهم يقول لبعض: ما ترون مالكاً فاعلاً؟ فقال بعضهم: ينفذ ما أمر به رسول الله ﷺ، فرق مالك وفكر وقمت وقال الحارث بن مسكين قال يحيى بن حسان: سأل مالكاً رجل عن مسألة فطلبه بجوابها ورده مرات فانصرف مغموماً فرأى النبي ﷺ في نومه فقال له: «**عد إلى مالك فلو كانت مسألتك أشد من الصخر وأرقّ من الشعر لجعل الله لمالك فيها مخرجاً لكثرة قوله ما شاء الله**». قال أبو محمد: وكان مالك إذا سئل عن مسألة أو فعل فعلاً أو دخل بيتاً أو داراً قال: ما شاء الله لقوله تعالى: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾ [الكهف: ٣٩]. قال يونس بن عبد الأعلى سمعت بشر بن بكر قال: رأيت الأوزاعي في المنام مع جماعة من العلماء في الجنة؟ فقلت: وأين مالك بن أنس؟ فقيل: رفع، قلت: بماذا؟ قيل: بصدقه. وقال ابن القاسم: كنا عند مالك في مرضه الذي توفي فيه فدخل ابن الدراوردي فقال: يا أبا عبد الله رأيت البارحة رؤيا تسمعها مني، كنت أرى رجلاً ينزل من السماء عليه ثياب بيض وبيده طومار ينشره ما بين السماء والأرض فيصيح ثلاث مرات هذه براءة مالك من النار، ثم استأذن عليه رسول الأمير فقال: يا أبا عبد الله مؤذن المسجد رأى البارحة رؤيا تسمعها منه. فقص مثل ذلك، فقال مالك: الله المستعان أو ما شاء الله وكان المؤذن قد أذّن في مسجد رسول الله ﷺ ثمانين سنة. وقال سهل بن مزاحم المروزي: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله من نسأل بعدك؟ فقال: «**مالك بن أنس**» رأيت هذا معزياً إلى كتاب أبي نعيم. وقال الدراوردي: رأيت في المنام أني دخلت مسجد النبي ﷺ فرأيت رسول الله ﷺ يعظ الناس، إذ دخل مالك بن أنس فلما أبصره رسول الله ﷺ قال: «**إليّ إليّ**» فأقبل حتى دنا منه فسل عليه السلام خاتمه من

خنصره فوضعه في خنصر مالك رضي الله عنه، وقال عبد الله بن عمر بن خالد من أهل الإسكندرية: رأى رجل في المنام أن الناس اجتمعوا في جبانة الإسكندرية يرمون في غرض فكلهم يخطىء الغرض فإذا رجل رمى ويصيب القرطاس، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا مالك بن أنس، وقال الزهري بن جبلة: كنت أنا عند مالك فرأيت النبي ﷺ جالساً عند الاسطوانة المخلقة وأنا معه إذ أتاه رجل فسأله عن مسألة فقال له: «**ائت مالكاً فاسأله فما على وجه الأرض أعلم منه**» فلما أصبحت أتيت مالكاً فأخبرته.

ورأى بعض الصالحين مالكاً بعد موته في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بم؟ قال: بكلمة سمعتها من عثمان كان إذا رأى ميتاً قال لا إله إلا هو الحي القيوم الذي لا يموت فأدمتها فأدخلني الله بها الجنة. وفي مالك وموطئه قال أبو عثمان الأرجواني:

لقد بان للناس الهدى غير أنهم ... غدوا لجلابيب الهوى قد تجلببوا
فلو حدثت في بلدة الغير بدعة ... رأيت إلينا السفن في البحر تركب
فمن رام أن ينجو بمهجة نفسه ... فلا يعد ما تحوي من العلم يشرب
أأتترك داراً كان بين بيوتها ... يروح ويغدو جبرئيل المقرب
وكان رسول الله فيها وبعده ... بسنته أصحابه قد تأدبوا
وفرق سبل العلم في تابع لهم ... فكل امرىء منهم له فيه مذهب
فحصله بالسبك للناس مالك ... ومنه صحيح في المجس وأجرب
فأبرا بتصحيح الرواية داءه ... وتصحيحها فيه دواء مجرب
ولم يؤت هذا العلم إلا من أهله ... وفي قلة التفسير بالعلم معطب
أيا طالباً للعلم إن كنت تطلب ... حقيقة علم الدين تحظى وترغب
فبادر موطأ مالك قبل فوته ... فما بعده إن فات للعلم مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده ... فإن الموطأ الشمس والعلم كوكب
هو الحق عند الله بعد كتابه ... وفيه لسان الصدق بالحق معرب
هو الأصل طاب الفرع منه لطيبه ... ولم لا يطيب الفرغ والأصل طيب
لقد أعربت آثاره بعنانها ... فما لهما في العالمين مكذب
ومما به أهل الحجاز تفاخروا ... بأن الموطأ بالعراق محبب
وكل كتاب بالعراق مؤلف ... تراه بآثار الموطأ يعصب
ومن لم تكن كتب الموطأ ببيته ... فذاك من التوفيق بيت مخيب
ولو بالموطأ يعمل الناس كلهم ... لأمسوا وما منهم على الأرض مذنب

جـزى الله عنـا في المـوطـأ مـالكـاً ... بـأفضـل مـا يجـزى اللبيب المهـذب
فقـد أحسن التحصيـل في كـل مـا روى ... كـذا فعـل من يخشى الإلـه فيـرغـب
لـقـد رفـع الـرحمـن بـالعـلم قـدره ... غـلامـاً وكـهـلاً ثـم إذ هـو أشـيـب
أتـعـجـب مـنـه إذ عـلا فـي حـيـاتـه ... تـعـاليـه مـن بعـد الـمـنيـة أعـجب
لقـد فـاق أهـل العلم شـرقـاً ومغـربـاً ... فـأضحت به الأمثـال في النـاس تضـرب
ومـا فـاتـهـم إلا بـتـقـوى وخـشـيـة ... وإذ كـان يـرضـى في الإلـه ويـغضـب
فـلا زال يـسـقـي قـبـره كـل عـارض ... بـمسـق لقـد ظلت عـزاليـه تـسكـب
ويـسقـي قـبـوراً حـولـه دون سـقـيـه ... فـيصـبـح فيـهـا وهـو ريـان مشـعـب
ومـا بي بخـل إن سقـا لهـا كسقيـه ... ولـكـن حـق الـعـلم أولـى وأوجـب

وقال فيه أبو عبد الله الحميدي الأندلسي:

إذا قـيـل من يـحمـي الحـديـث وأهله ... أشـار ذوو الألـبـاب يعـنـون مـالـكـا
إلـيـه كـفـاهـا عـلـم ديـن مـحـمـد ... مـوطـأ فـيـه لـلرواة الـمـسـالـكـا
ووقـت دروس العـلم شـرقـاً ومغـربـاً ... يـقـدم في تـلك المـسـالـك مـالكـا
ونـظم بـالـتـصـنـيـف اشـتـات نـشـره ... وأوضـح مـا قـد كـان لـولاه حـالكـا
وقـد جـاء في الآثـار من ذاك شـاهـد ... عـلى أنـه فـي الـعـلم خص بـذلـكـا
فمن كـان ذا طعن على علم مـالـك ... ولـم يقـتبس مـن نـوره كـان هـالـكـا

وقال فيه أبو المعالي المالكي ابن رافع المدني:

ألا إن فـقـد العـلم في فـقـد مـالـك ... فـلا زال فينا صـالـح الحـال مـالـك
يـقـيـم سـبـيـل الـحق سـراً وجـهـرة ... ويهـدي كمـا تهـدي النجـوم الشـوابـك
فـلولاه مـا قـامـت حـقـوق كـثـيـرة ... ولـولاه لاستـدت علينـا المسـالـك
عـشـونـا إلـيـه نـبـتـغـي ضـوء رأيـه ... وقـد لـزب الغبي اللجـوج المماحـك
فـجـاء بـرأي مـثـلـه يـقـتـدى بـه ... كـنـظم جـمـان زيـنـتـه الـسـبـائـك

فصـل

قال المؤلف لطف الله به: هذا وشهد لهذا الإمام أئمة العلم وتضافروا عليه بالنظر والعظم وتوافقوا فيه من كل مصر واشتهر به في كل عصر. وأما رفعة قدره مع الخلفاء وعظم منزلته عند الأمراء ورجوعهم إلى رأيه دون غيره من الآراء وتقديمهم له على من سواه، ونفوذ كلمته في العامة وانقيادهم له بالطاعة وكمال سيادته عند الكافة فقد كان له

في ذلك المقام الأترف والمحل الرفيع الأشرف بحيث أنه لم يكن في وقته من يساويه ولا من يقرب منه فيساميه. ولا طمع فيه أحد معه فيباريه، فكانت الخلفاء تقتدي بعلمه والأمراء تستضيء برأيه والعامة منقادة إلى قوله، وكان يأمر فيمتثل أمره بغير سلطان ويقول فلا يسئل عن دليل قوله ولا يطلب ببرهان ويأبى بالجواب فلا يجترىء على مراجعته إنسان، فلذلك قال فيه شاعرهم:

يأبى الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

وكانت الملوك تسائله أن يراسلهم فلا يرضى بذلك، وتعرض عليه أن يقضي لهم فيعرض عن ذلك، وكانوا مع ذلك يسألونه ويتعلمون منه ويأتونه ولا يستنطقون عنه ويجلسون إليه ويتمثلون إليه بين يديه ويأمرون نوابهم باستشارته ولا يقضى أمر دون مشورته.

قال ابن قتيبة: نمي إلى أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين: إن العلماء يطعنون عليه ويتكلمون فيه فبعث إلى مالك ليلاً فأتاه خائفاً منه، فدخل إليه بين صفوف الرجال معتدين بالسلاح قائمين عن يمينه وعن يساره حتى خلص إليه، فوجده في بيته جالساً ليس معه غيره، قال مالك: فجعل يدنيني حتى جلست قريباً منه ثم استدناني حتى مست ركبتي ركبته، فقال: ما هذا الذي يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء وأنتم أحقّ الناس بالطاعة وأعرفهم بما يلزم من حق الأئمة. فقال: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ [الحجرات: ٦]. فجرى بينهما كلام ومذاكرة إلى أن ذكر له مالك: أنه لما بعث إليه ليلاً وطلبه خاف منه القتل على نفسه، فقال أبو جعفر: حاشا لله يا أبا عبد الله أن أثلم ركناً للمسلمين فإن لم أكن بالذي أبنيه لهم فلست بهادمه لهم، ولكن إن أردت ما عندنا فاذهب معي إلى مدينة السلام فلا أقدم أحداً عليك أو نحو هذا، فقال له مالك: إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**». فقال له المنصور: فلا أحمل عليك شيئاً تكرهه، فبينما هما في أثناء الكلام خرج عليهما بعض أولاد المنصور فلما رأى مالكاً رجع كالفزع، فقال المنصور: أتدري مم فزع؟ قال مالك: قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: لأنه لم ير أحداً جلس مني هذا المجلس غيرك، فلما انصرف مالك أجازه المنصور بجائزة سنية قيل أنها ثلاث صرر كل صرة ألف دينار، فلما خرج مالك

قال ولد المنصور لأبيه: أتدني رجلاً من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس؟ فقال له المنصـور: يا بني والله مـا على وجه الأرض اليـوم رجل يستحيـا منـه إلا مـالـك بن أنس وسفيـان الثـوري. قـال مـالـك: ووجـدت المنصـور أعلم النـاس بكتـاب الله وسنّـة رسول الله ﷺ وآثار من مضى، هذا معنى ما ذكره ابن قتيبة دون لفظه.

وذكـر عبـد الـرحمن بن أبي حـاتم عن أبي خليـل يعني عتبـة بن حمّـاد الفـزاري الدمشقي قال قال مالك: قال لي جعفر يوماً: أعلى ظهرها أحد أعلم منـك؟ قلت: بلى، قـال: فسمّهم لي، قلت: لا أحفظ أسمائهم، قـال: قد طلبت هـذا الشـأن في زمن بني أمية وقد عرفته، أما أهل العراق، فأهل كذب وباطل وزور وأما أهل الشـام، فأهـل جهاد ليس عندهم كبير علم، وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم وأنت عليم الحجـاز فلا تـردن على أمير المؤمنين قوله؟ قال مالك ثم قال لي: قد أردت أن أجعل هذا العلم علماً واحداً أكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة فيعملون به فمن خالفـه ضربت عنقـه، فقلت: يا أمير المؤمنين أوَ غير ذلك أن النبي ﷺ كان في هذه الأمة فكان يبعث السرايا وكان يخـرج فلم يفتح من البلاد كثيراً حتى قبضه الله عز وجل، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه فلم يفتح من البلاد كثيراً، ثم قام عمر رضي الله عنه بعدهمـا، ففتحت البلاد على يـديه فلم يجـد بداً أن يبعث أصحاب محمد ﷺ معلّمين، فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابـر إلى يومنـا هذا فإن ذهبت تولهم عما يعرفون إلى مـا لا يعرفـون، رأوا ذلك كفـراً فاقـرّ أهل كـل بلد على ما فيها من العلم وخـذ هذا العلم لنفسـك، فقال لي: مـا أبعدت هـذا القول اكتب هذا العلم لمحمد. وقال الشافعي: بعث أبو جعفر المنصور إلى مالك لما قدم فقال لـه: إن الناس قد اختلفوا في العراق فضـع للناس كتـاباً نجمعهم عليـه فوضـع الموطـأ. وقال غيره: إن أبا جعفر لما قال لمالك ضع كتـاباً في العلم نجمـع الناس عليـه، قال لـه: مع ذلك اجتنب فيه شواذ ابن عباس وشذوذ ابن عمر ورخص ابن مسعود، فقال له مالـك: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين أن تحمل الناس على قول رجـل واحد يخـطىء ويصيب وإنما الحق من رسـول الله ﷺ، وقد تفـرقت أصحابـه في البلدان وقلّد أهـل كـل بلد من صـار إليهم فأقر أهل كل بلد على ما عندهم، فانظر إنصـاف مالـك رضي الله عنه وصحـة دينه وحسن نظره للمسلمين ونصيحته لأمير المؤمنين ولو كان غيره من الأغبياء المقلدين والعتاة المتعصبين والحسـدة المتدينين لـظن أن الحق فيما هـو عليه، أو مقصـور على من ينسب إليـه وأجاب أميـر المؤمنين إلى ما أراد وأثـار بذلـك الفتنة وأدخـل الفساد. ولقـد قال ابن القاسم قلت يوماً لمالك: يا أبا عبد الله ليس بعد أهل المدينة أحد أعلم بالبيـوع من أهل مصـر، فقال: ومن أين علمـوا ذلك؟ قلت: منـك يا أبـا عبد الله، فقـال: وأنا مـا علمتها

فكيف يعلمونها؟ وقال مالك: قدم علينا أبو جعفر أمير المؤمنين سنة خمسين ومائة فدخلت عليه، فقال لي: يا مالك كثير شيبك، قلت: يا أمير المؤمنين من أتت عليه السنون كثر شيبه، فقال لي: يا مالك ما لي أراك تعتمد على قول ابن عمر من بين أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلت: يا أمير المؤمنين كان آخر من بقي عندنا من أصحاب رسول الله ﷺ فاحتاج الناس إليه فسألوه وتمسّكوا بقوله، فقال: يا مالك عليك بما تعرف أنه الحق عندك ولا تقلدن علياً وابن عباس أو نحو هذا. وقال مالك: دخلت على أبي جعفر مراراً وكان لا يدخل عليه أحد من الهاشميين وغيرهم إلا قبّل يده ولم أقبّل يده قط، وروي أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين قال لمالك: ما تقول في مالي؟ قال: خير مال، قال فقال له: انصرف إن شئت، ثم قال لأبي حنيفة: ما تقول في مالي؟ قال: يا أمير المؤمنين أنت أعلم به، فقال له: انصرف إن شئت، وقال لابن أبي ذئب: ما تقول في مالي؟ فقال له: شر مال، فقال له: انصرف إن شئت. ثم مكث مدة ثم أرسل إلى مالك بمال وقال لرسوله: إن لم يقبله فاضرب عنقه فقبله مالك وسلم، فأرسل إلى ابن أبي ذئب بمال وقال لرسوله: إن قبله فاضرب عنقه، فردّه ابن أبي ذئب وسلم، وأرسل إلى أبي حنيفة بمال وقال لرسوله قل له: أمير المؤمنين يأمرك تضعه حيث ترى فإن قبله فحسبه وإن ردّه فحسبه، فقال أبو حنيفة للرسول: أمير المؤمنين يعرف من أين جمعه وهو يعرف أين يضعه، ثم أرسل إليهم الثلاثة وقال لمالك: إني أريد أن أوليك القضاء، فقال له: لا أصلح لذلك لأني محدود، وقال لأبي حنيفة مثل ذلك فقال له أبو حنيفة: لا أصلح لذلك لأني مولى ولا يصلح أن يقضي بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وقال لابن أبي ذئب مثل ذلك فقال: لا أصلح لذلك لأني قرشي ومن كان شريكك في نسبك فلا يصلح أن يكون شريكك في سلطانك وإنما قالوا ذلك رضي الله عنهم واعتذروا به هروباً منهم عن القضاء ورغبة عنه خوفاً على أديانهم. وأمّا قول مالك إني محدود: فإنما أراد بذلك السياط التي ضربه بها جعفر بن سليمان الهاشمي أمير المدينة من جهة أبي جعفر المنصور سنة سبع وأربعين ومائة، لما أفتى أن يمين المكره لا يلزم فلما سمع به أبو جعفر حمله إلى العراق على قبّة ثم قال لمالك بعد ذلك: اقتص منه فإنه قد ظلمك، فقال له: يا أمير المؤمنين ليس لي عليه قصاص لأني جعلته في حلّ لأنه من قرابة رسول الله ﷺ، فاستحييت أن آتي يوم القيامة متعلقاً برجل من قرابة رسول الله ﷺ أطلبه بمظلمة، وكانت تلك السياط على مالك عند الناس كالحلل المنشورة لما علموا أنه أفتى بحق وضرب بباطل، عفا عن هذه المظلمة تعظيماً لجانب رسول الله ﷺ ولتعظيم أمير المؤمنين له وتمكينه من القصاص من نائبه وابن عمه. وقد قيل: إن أبا جعفر هو الذي نهى مالكاً عن حديث ليس على مكره طلاق ثم دسّ إليه من سأله عنه فحدّثه به على

رؤوس الناس فضربه بالسياط، وإن كتف مالك انخلعت حينئذ رضي الله عنه.

وذكر القاضي أبو الفضل عياض بسنده: إن أبا جعفر المنصور ناظر مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله عز وجل أدّب قوماً فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجرات: ٢] الآية ومدح قوماً فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ [الحجرات: ٣] الآية وذمّ قوماً فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [الحجرات: ٤] الآية، وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وادعو ثم استقبل رسول الله ﷺ فقال: ولم تغرب وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام يوم القيامة بل استقبله واستشفع به يشفعه الله. قال الله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً﴾ [النساء: ٦٤]. وقال حسين بن عروة: لما حج المهدي بعث إلى مالك بألف دينار وقال: إن أمير المؤمنين يريد أن تصحبه إلى مدينة السلام، فقال مالك: قال رسول الله ﷺ: «**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**» والمال عندي على حاله، وقال إبراهيم بن حمّاد الزهري المدني سمعت مالكاً يقول: قال لي المهدي: يا أبا عبد الله ضع كتاباً أحمل الأمة عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين أما هذا السقع وأشار بيده إلى المغرب فقد كفيتكه، وأما الشام ففيهم الرجل الذي علمته يعني الأوزاعي، وأمّا أهل العراق فهم أهل العراق. وقال أبو مصعب: لما قدم المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشراف المدينة على أميال من المدينة، فلما أبصر المهدي لمالك وعلى مالك ثياب سود عدنية انحرف إليه المهدي وعانقه وسلّم عليه وسايره، فالتفت إليه مالك فقال: يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة فيمن يقوم عن يمينك وعن يسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلّم عليهم فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ولا بلد خير من المدينة، فقال له: لم يا أبا عبد الله؟ قال: لأنه لا يعرف قبر نبي على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، ومن كان قبر محمد ﷺ عندهم ينبغي أن يعلم فضلهم على غيرهم، ففعل المهدي ما أمره به مالك فلما دخل المدينة ونزل وجه إلى مالك ببغلة ليركب ويأتيه، فردّ مالك البغلة وقال: إني لأستحي من الله أن أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ، وأتاه ماشياً وكانت به علة فاتكأ على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي وعلى حسن بن أبي زيد العلوي وعلي ابن علي اليمني وكانوا من علماء المدينة وأشرافها، فقال المهدي: سبحان الله رد البغلة إجلالاً لرسول الله ﷺ، فقيض الله له هؤلاء فوالله لو دعوتهم أنا إلى هذا ما

أجابوني إليه، فقال له المغيرة: نحن يا أمير المؤمنين قد افتخرنا على أهل المدينة لما اتكأ مالك علينا. ولما قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين بعث إلى مالك فلم يأته فقال له أبو يوسف: يبلغ أهل العراق أنك بعثت إلى مالك فلم يأتك ابعث إليه من يأتيك به كرهاً أو نحو هذا، فبعث إليه الرشيد مرة ثانية فأتاه مالك، فقال له الرشيد: يا ابن أبي عامر أبعث إليك فتخالفني، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: كنت أكتب الوحي بين يدي النبي ﷺ فنزلت ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ [النساء: ٩٥] وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني رجل ضرير وقد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما قد علمت، فقال النبي ﷺ: **«لا أدري»** وقلمي رطب ما جفّ حتى وقع فخذ النبي ﷺ على فخذي ثم أغمي عليه ثم جلس ﷺ فقال: **«يا زيد اكتب» ﴿غير أولي الضرر﴾ [النساء: ٩٥]**. يا أمير المؤمنين حرف واحد بعث به جبريل والملائكة من مسيرة خمسة آلاف عام ألا ينبغي أن أعزّه وأجلّه بأن الله تعالى رفعك وجعلك في هذا الموضع بعلمك، فلا تكن أول من يضع عزّ العلم فيضع الله عزّك. فقال له الرشيد: تأتينا حتى نتعلّم عليك ونسمع منك، قال: أصلحك الله إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: نأتي وتمنع الناس حتى ننصرف، قال: إذا منع العلم من العامة لم ينفع الله به الخاصة ولا العامة، قال له: فتقرأ علي إذا أتيت؟ قال له: ما قرأت على أحد منذ كذا وكذا ولا أقرأ على أحد بعد ذلك، قال: فتجعل من يقرأ ونحن نسمع، قال: ذلك لك فذهب الرشيد إلى منزل مالك وتعلّم منه وسمع عليه وكان القارىء له معن بن عيسى الفزاري. ولما دخل الرشيد إلى منزل مالك أجلسه معه على منصته التي يجلس عليها ليسمع الحديث، ثم قال: يا أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا إلا وهم يحبون أن يتواضعوا لله فنزل الرشيد عن المنصة وجلس بين يدي مالك رضي الله عنه تواضعاً لعلمه وانقياداً لقوله. وقال أبو مصعب: سأل هارون الرشيد مالك بن أنس وهو في منزل مالك ومعه بنوه أن يقرأ عليهم، فقال: ما قرأت على أحد منذ زمن وإنما يقرأ عليّ، فقال له: اخرج الناس عني حتى أقرأ أنا عليك، فقال له: إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص فأمر معن بن عيسى فقرأ عليه.

وقال عبد الله بن عبد الحكم سمعت مالكاً يقول: شاورني هارون الرشيد أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر النبي ﷺ ويجعله من جوهر وذهب وفضة، وفي أن يقدم نافع بن أبي نعيم إماماً يصلّي بالناس في مسجد رسول الله ﷺ، فقلت: يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ في الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في الآفاق وكل عند نفسه مصيب، وأما نقض

منبر النبي ﷺ واتخاذك إياه من جوهر وذهب وفضة فلا أرى أن تحرم الناس أثر النبي ﷺ، وأما تقديمك نافعاً إماماً في مسجد رسول الله ﷺ فنافع إمام في القراءة لا يؤمن أن تبدر منه بادرة في المحراب فيحفظ عليه، فقال: وفّقك الله يا أبا عبد الله. وحج هارون الرشيد فقدم المدينة فبعث إلى مالك بخمسمائة دينار في كيس، فلما قضى نسكه وانصرف وقدم المدينة بعث إلى مالك أن أمير المؤمنين يحب أن يرسل مالكاً إلى مدينة السلام، فقال مالك لرسوله: إن الكيس بخاتمه وقد قال رسول الله ﷺ: «**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**» فرحل الرشيد وتركه. وقال عبد الله بن حسن بن داود بن حسن كنت مع عبد الملك بن صالح إذ كان أميراً على المدينة ومعه جماعة من الطالبيين والعباسيين، فقال لنا: ما عندكم في آل محمد ومن هم؟ قلنا: أصلح الله الأمير أنتم، فقال: في هذا اختلاف يا هذا ادع لي مالكاً فلما دخل أجلسه إلى جنبه، ثم قال له: يا أبا عبد الله من آل محمد؟ قال له مالك: أمّته، ثم تلا ﴿ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾ [غافر: ٤٦] ثم عدل الأمير كتاب الله ثم أخذ نعليه وقال: وفقك الله أيها الأمير فوالله ما كلمه أحد هيبة له ولو تكلم بذلك غيره لما أفتاه. وقال بكار بن عبد الله الزهري: استعمل الرشيد محمد بن عبد الله بن سليمان الربعي على المدينة وصرف عنها عبد الملك بن صالح في أوّل سنة ثلاث وسبعين ومائة، وأمره أن لا يقطع أمراً دون مالك فلما جلس للناس أتاه مالك يعني فيمن أتى فاستدناه وأكرمه، فلما نهض مالك نهضنا معه. فقال له الربعي: ننهض أبا عبد الله من غير وصية؟ فقال له مالك: ولم يعلم ما تقدم به إليه أمير المؤمنين إذا عرض لك أمر فيه كسر فاتئد وعاير على نظرك بنظر غيرك فإن العيار يذهب عيب الرأي كما تظهر الناس عيب الذهب. وقال أبو مصعب: كنا نكون عند مالك فلا يكلم ذا ذا ولا يلتفت ذا إلى ذا والناس مائلون برؤسهم هكذا، وكانت السلاطين تهابه وهم قاعدون يستمعون، وكان يقول في المسألة لا أو نعم فلا يقال له من أين قلت هذا؟ وقال محمد بن عمر الواقدي: كان مالك يجلس في منزله على ضجاع له ونمارقه مطرحة يمنة ويسرة في سائر البيت لمن يأتي من قريش والأنصار والناس، وكان مجلسه مجلس حلم ووقار وكان رجلاً مهيباً نبيهاً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين أو قال الحديث بعد الحديث وربما أذن لبعضهم فقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة فليس أحد ممن حضره يدنوا منه ولا ينظر في كتابه ولا يستفهمه هيبة له وإجلالاً، وكان حبيب إذا أخطأ في القراءة فتح عليه مالك وكان ذلك قليلاً.

وقال الطبري سمعت إسماعيل بن موسى الفزاري يقول: دخلت على مالك وسألته أن يحدّثني فحدّثني اثني عشر حديثاً ثم أمسك، فقلت له: زدني أكرمك الله وكان له

سرداب فقام على رأسه فأمرهم فأخرجوني من داره. وقيل لمالك: إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون. فقال: رحمك الله فأين التكلم بالحق؟ وقيل له: إن الناس يقولون إنك تدع الخروج إلى المسجد وتأتي الأمراء وهذا إنما كان في آخر عمره لما أيس وكبر، فقال: أما تركي الخروج إلى المسجد فإني أضعف عن ذلك وأما إتياني الأمراء فبالحمل مني على نفسي فإنه ربما استشير بعض من لا ينبغي أن يستشار. وقال عبد الرحمن بن مهدي كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر حملني أهل بلادي مسألة أسألك عنها، فقال سل: فسأله فقال: لا أحسن، فقطع بالرجل وكأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، قال: وأي شيء أقول لأهل بلادي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم قال مالك بن أنس: لا أحسن. وقال ابن أبي أويس سمعت مالكاً يقول: إن الرجل إذا سُئل عن مسألة فلم يجب واندفعت عنه فإنما هي بلية صرفها الله تعالى عنه، وقال ابن وهب قال مالك سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلاً في أيديهم فإذا سئل أحدهم عمّا لا يعلم قال: لا أدري، وقال ابن أبي أويس: ما كان يتهيأ لأحد بالمدينة أن يقول: قال رسول الله ﷺ إلا رجلاً مشهوراً بطلب العلم وإلا حبسه مالك، فإذا سئل فيه قال صحيح ما ذكره عن النبي ﷺ ثم يخرج، وقد كان ابن كنانة وابن أبي حازم والدراوردي وغيرهم يسمعون معه من مشايخ فتركوا الحديث عنهم هيبة لمالك فلما مات فشا ذلك فيهم. وقال عبد الرحمن بن عبد العزيز العمري قال مالك: ربما وردت علي مسألة فتمنعني الطعام والنوم، قلت: ولم يا أبا عبد الله؟ فوالله ما كلامك عند الناس إلا كنقش في حجر قال: فمن حق أن يكون هكذا أن يكون هكذا. وقال ابن أبي أويس: كنت عند مالك فجاءه رجل فقال: أليس قد أمر النبي ﷺ بدفن الشعر والأظفار؟ فغضب وأمر بضربه وسجنه، فقيل له: إنه جاهل، فقال: يقول: قال النبي ﷺ وقد قال النبي ﷺ: **«من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**، ثم قال إن دفن الشعر والأظفار بدعة، فقد أعطى النبي ﷺ شيئاً من شعره للمهاجرين والأنصار وكان عند أنس بن مالك شيء من ذلك، وقال يحيى بن خلف البغوي: كنت عند مالك فجاءه رجل فقال له: ما تقول فيمن قال القرآن مخلوق؟ قال: زنديق كافر فاقتلوه، فقال: يا أبا عبد الله ليس هو كلامي إنما هو كلام، قال: لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك.

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد قال رجل لمالك: يا أبا عبد الله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول

والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب وأراك صاحب بدعة وأمر بإخراجه. وقال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنه كان عنده جالساً فأتى رجل فقال: يا أبا عبد الله مسألة فسكت، ثم قال: مسألة فسكت، ثم أعاد عليه فرفع رأسه كالمجيب له. فقال له السائل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استواؤه؟ قال: فطأطأ مالك رأسه ساعة ثم رفعها، فقال: سألت عن غير مجهول وتكلمت في غير معقول ولا أراك إلا امرأ سوء أخرجوه، وسأله جبريل بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم فأمر بحبسه فقيل له: أنه قاض، قال: القاضي أحق من أدّب. وسأله هشام بن القاري عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطاً ثم أشفق، فحدثه عشرين حديثاً فقال هشام: وددت لو زادني سياطاً ويزيدني حديثاً فهذه كانت حال هذا الإمام رضي الله عنه مع الملوك وخلفائهم ومنزلته عند العامة وعلمائهم.

فصل

وأما تقواه لربه ومعرفته بعظيم قدر نبيه وصحبه وآله وتعظيمه لشريعته واتّباعه لسنّته ونصيحته لأمّته، وإنفاذ همته وكمال مروءته وكمال هيئته ووفور هيبته، فقد كان من ذلك على غاية من التحفّظ وفي نهاية التيقّظ مبرزاً في ذلك بالتقدم معروفاً به وبالعلم والتوسم، وفيما ذكرناه دلالة ظاهرة عليه لكن نزيد ذلك تأكيداً بما نضيف إليه، فمن ذلك ما روي عن عبد العزيز بن الماجشون أنه قال وقد ذكر مالك: والله ما علمناه إلا بصلاح وعفاف. وقال ابن وهب: كان أعلم الناس يزيد ومالك ينقص كل سنة من حديثه. وقال أبو عبد الله بن الفرات: وضع مالك في الموطأ عشرة آلاف حديث فلا زال ينقيها حتى صارت إلى ما هي عليه الآن. وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت بعض أصحابنا يقول: كان مالك إذا قيل له إن هذا الحديث لم يحدث به غيرك تركه، وإذا قيل له هذا حديث يحتج به أهل البدع تركه، قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: معلوم أن مالكاً كان من أشدّ الناس تركاً لشذوذ العلم وأشدهم انتقاداً للرجال وأقلّهم تكلفاً وأتقنهم حفظاً ولذلك صار إماماً. وقال ابن وهب قيل لأخت مالك: ما كان يشغل مالكاً في بيته؟ قالت: المصحف والتلاوة، وقال يحيى بن معين: بلغنا عن مالك أنه قال: عجباً من شعبة هذا الذي ينقي الرجال وهو يحدّث عن عامر بن عبد الله، وقال مالك: أي رجل معمر لو سلم من خصلة، قالوا: ما هي يا أبا عبد الله؟ قال: يفسّر القرآن عن قتادة. وقال مالك: وقد سئل عن أيوب السختياني ما أحدثكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه، وقد حج حجتين فلم

أكتب أنا عنه ولم أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه. وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه ويصفر حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون، لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيّد القرّاء لا يكاد يسئل عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسّم فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ اصفر، وما رأيته يحدّث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً وإما صامتاً وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعبّاد الذين يخشون الله عزّ وجل، ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم وقد جفّ لسانه وفمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت أرى عامر بن عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع، ولقد رأيت الزهري وكان من أهنأ الناس وأقربهم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته، ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه. ولما كثر على مالك الناس قيل له: لو جعلت مستملياً يسمعهم فقال قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجرات: ٢] وحرمته حياً وميتاً سواء.

وقال إبراهيم بن عبد الله بن أبي مريم الأنصاري قاضي المدينة: أتى أبو حازم مالك بن أنس وهو يحدّث فجاوزه وقال: إني لم أجد موضعاً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وقال مطرف: كان مالك إذا أتى الناس إليه خرجت إليهم الجارية فتقول لهم يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل، خرج إليهم، وإن قالوا: الحديث دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ولبس تاجه وتعمّم ووضع على رأسه رداءه، وتلقى له منصته فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ. وقال غيره: ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدّث عن رسول الله ﷺ، قال ابن أبي أويس فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدّث به إلا على طهارة متمكناً، وكان يكره أن يحدّث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل، وقال: أحب أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ. وقال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدّثنا فلدغته عقرب ستة عشر مرة وهو يتغيّر لونه ويصفرّ ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما تفرّق الناس عنه قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً، قال: نعم إنما

صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ، وقال ابن مهدي: مشيت يوماً مع مالك إلى العقيق فسألته عن حديث فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجلّ من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي، وقال يحيى بن سليمان بن نضلة اليمني سمعت مالكاً يقول: لا أوتى برجل يفسّر كتاب الله غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالاً. وقال يحيى بن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه، قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله: وكان مالك لا يركب في المدينة دابة ويقول: أستحي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة. وروي أنه وهب للشافعي كراعاً كثيراً كان عنده فقال له الشافعي: أمسك منها دابة، فأجابه بمثل هذا قال المؤلف لطف الله به: ومما يؤيد أن مالكاً لم يكن يركب بالمدينة، أن رواة سيرته وأخباره قد ذكروا جميع صفاته وأحواله وملابسه حتى نعاله وجملة تركته ولم أعلم أحداً ذكر له دابة لركوبه، ولا في تركته والله أعلم بصحة ذلك من سقمه، وأفتى رحمه الله فيمن قال: تربة المدينة رديئة بأن يضرب ثلاثين وأمر بحبسه ولو كان له قدر، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة.

وقال أبو عبد الرحمن: كنا عند مالك فحدثنا أبو الزبير عن جابر أنه قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية سبعين بدنة، فقال له رجل: يا أبا عبد الله هذه السبعون بدنة كم كانت تساوي؟ قال: تساوي كل بدنة عشرة دنانير، فقال مالك: جروه، فجروه برجله وضرب ثم قال: يا جاهل يا قليل الدين قال النبي ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق ملء الأرض ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه**» فإذا لم يبلغوا ما أنفق أصحابه فالنبي ﷺ أحرى أن لا يقوّم بشيء مما أنفق، ولا يقوّم بشيء من نوقه ولا غيرها لأن النبي ﷺ أجلّ من ذلك. وقال رضي الله عنه: من شتم النبي ﷺ قتل، ومن شتم أصحابه أدّب، وقال أيضاً: من شتم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أبا بكر أو عمر أو عثمان أو معاوية أو عمرو بن العاصي، وإن قال: كانوا على ضلال قتل وإن شتمهم بهزاً من مشاتمة الناس نكل نكالاً شديداً. وقال ابن حبيب من اتباعه: من غدا من البيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدّب أدباً شديداً، ومن بادر إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت ولا يبلغ به القتل. وقال سحنون: من كفّر أحداً من أصحاب النبي ﷺ علياً أو عثمان أو غيرهما أوجع ضرباً، وروي عن سحنون أنه قال: من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أنهم كانوا على ضلالة وكفر قتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نكل النكال الشديد. وروي عن مالك: من سبّ أبا بكر جلد ومن سبّ عائشة قتل، قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف.

القرآن، وقال رضي الله عنه: من انتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ فليس له في الفيء حق قد قسم الله الفيء في ثلاثة أصناف فقال: ﴿للفقراء المهاجرين﴾ [الحشر: ٨] آية ثم قال: ﴿والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم﴾ [الحشر: ٩] الآية وهؤلاء هم الأنصار، ثم قال: ﴿والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ [الحشر: ١٠] فمن بغضهم فلا حق له في فيء المسلمين. وقال أبو عروة رجل من ولد الزبير: كنا عند مالك فذكر أن رجلاً نقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار﴾ إلى قوله ﴿ليغيظ بهم الكفّار﴾ [الفتح: ٢٩] فقال مالك: من أصبح في قلبه غيظاً على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته الآية. وقال رضي الله عنه: لا يحل المقام بأرض يسب فيها سلف هذه الأمة فروى أشهب وابن وهب عنه أنه قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال: من سبّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده بسنننا الآخذ بها تصديقاً بكتاب الله عز وجل، واستعمالاً لطاعته وقوة على دينه ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها، واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً. وقال الحسن بن إسماعيل الضمري وأبو مصعب سمعت مالكاً يقول: من ادّعى إلى نسب النبي ﷺ وذكر أنه من ولد علي أو جعفر أو عقيل أو العباس أو أحد من بني هاشم يضرب ضرباً وجيعاً، ويطاف به حتى يشتهر عند الناس ثم يحبس حبساً طويلاً حتى تظهر منه توبة فإذا لم يفعل به هكذا فهو استخفاف بنسب رسول الله ﷺ. قال ابن وهب: سئل مالك عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء فقال: ليس ذلك على الناس، فتركته حتى خف الناس فقلت له: عندنا في ذلك سنّة، قال: وما هي؟ قلت: حدثنا الليث بن سعد وعمرو بن الحارث وابن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحلي عن المسور بن سداد القرشي، قال: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال: إن هذا الحديث حسن وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم سمعته بعد ذلك سئل فأمر بتخليل الأصابع وقال له إسحاق بن عيسى: إني أرى الرجل على غير السنّة أأجادله؟ قال: لا ولكن تخبره بالسنّة فإن قبل وإلا اسكت عنه. وكان رضي الله عنه يعيب المراء والجدال في الدين ويقول: أو كلما جاء رجل أجدل من رجل يريد أن يرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ؟ وقال أشهب سمعت مالكاً يقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما نحن عليه إذا لا نزال في طلب الدين.

وسئل عن القدرية فقال: قوم سوء لا تجالسوهم ولا تصلوا وراءهم وإن جامعوكم في سفر فأخرجوهم، وقال سحنون: كان ابن غانم يكره مجالستهم وقال: أرأيت لو جلس

أحد إلى أحد ساره في كمه بضاعة أما تحترز منه؟ فدينك أولى أن تحترز به. وقال مالك قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات فقد أكثر الفعل، قال مالك: وأراه يعني أصحاب الأهواء. قال مالك: وكان هنا رجل ما بقي دين إلا دخل فيه يعني من برآء الإسلام، فقال: لم أر شيئاً مستقيماً فقال له رجل: أأخبرك لِمَ لَمْ تُعرف المستقيم لأنك لا تتقي الله والله يقول: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ [الطلاق: ٢]. قال سحنون: بلغني أن القائل له ذلك القاسم بن محمد، وقال أشهب سمعت مالكاً يقول: إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وقال إسحاق بن عيسى قال مالك: من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب، قال عبد الرحمن بن مهدي دخلت عن مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد لعن الله عمراً فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل. وقال ابن وهب قال لي مالك: لا تحملن أحداً على ظهرك ولا تمكّن الناس من نفسك أد ما سمعت وحسبك ولا تقلد الناس قلادة سوء، قال وسمعت مالكاً يقول: الدنو من الباطل هلكة والقول في الباطل يصد عن الحق، ولا خير في شيء من الدنيا بفساد دين المرء أو مروءته ولا تأس على الناس فيما أحل الله لهم. وقال الشافعي رضي الله عنه: كان مالك إذا أتاه بعض أهل الأهواء قال له: أما أنا فعلى بيّنة من ديني وأما أنت فشاكّ فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه، وقال بشر بن عمران الزهري سمعت مالكاً يقول: لو أن العبد ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئاً ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله ﷺ لأرجو أن يكون في أعلى درجة الفردوس مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وقال ابن أبي أويس سمعت مالكاً يقول: ما قلت الآثار في قوم إلا ظهر فيهم الأهواء ولا قلت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء، وقال مالك رحمه الله: إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنّة، وقال ابن وهب: كنا عند مالك فذكرت السنّة فقال مالك: السنّة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق. وقال خالد بن خداش ودعت مالكاً فقلت: أوصني يا أبا عبد الله، قال: عليك بتقوى الله وطلب العلم من عند أهله، وقال إسماعيل بن أويس سمعت خالي مالكاً يقول: إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم، فقد أدركت سبعين عند هذه الأساطين وأشار بيده إلى مسجد رسول الله ﷺ، فلم آخذ عنهم شيئاً وإن أحدهم لو

ائتمن على بيت مال لكان أميناً. وكان يقدم علينا ابن شهاب الزهري فيزدحم على بابه وقال أشهب سمعت مالكاً يقول: أدركت بالمدينة مشايخ أبناء مائة أو أكثر فبعضهم قد حدثت حديثه وبعضهم لم أحدّث بأحاديث عنهم لأنهم لم يكونوا ثقاة فيما حملوا إلا أنهم حملوا شيئاً لم يعقلوه.

وقال ابن وهب قال مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء ليس بكثرة الرواية، وقال مالك رضي الله عنه: ما كان في كتاب الله أو فيما أحكمته السنّة عن رسول الله ﷺ فهو حق لا شك فيه، وما كان من اجتهاد الرأي فالله أعلم به، وكان إذا سأله الرجل عن شيء من الأهواء يقول له اقرأ ﴿ألم يكن﴾ [البينة: ١] فيقرأ إلى قوله تعالى: ﴿وذلك دين القيمة﴾ [البيّنة: ٥] فيضرب بيده على منكب الرجل ويقول: ما أمر الناس بهذا. وقال سعيد بن سليمان: ما سمعت مالكاً يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجاثية: ٣٢]. وقال رضي الله عنه: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا والذين يُقتدى بهم أن يقال: هذا حلال وهذا حرام وهذا الافتراء على الله عز وجل أما سمعت قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ [يونس: ٥٩] لأن الحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله ويؤيده السنّة، والأمر الذي لا اختلاف فيه والذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا. وقال رضي الله عنه: سئل كعب الأحبار: من أرباب العلم الذين هم أهله؟ قال: الذين يعملون بعلمهم، فقال: صدقت، قال: فمن نفاه عن صدورهم بعد أن علموه؟ قال: الطمع، قال: صدقت، وسئل مالك رضي الله عنه: هل يقدم في الحديث ويؤخر والمعنى واحد؟ فقال: أما ما كان من قول رسول الله ﷺ فإني أكره ذلك وأن يزاد فيه أو ينقص، وأما ما كان من غير قوله فلا أرى به بأساً إذا اتفق المعنى. وقيل لمالك أيضاً: أرأيت حديث النبي ﷺ أيزاد فيه الألف والواو والمعنى واحد؟ فقال: أرجو أن يكون خفيفاً، وقال غيره: أو قد يكون ذلك نقصاً من الكاتب قيل أو يؤخذ ممن لا يحفظ الأحاديث وهو ثقة؟ قال: لا، قيل: فيأتي بكتب قد سمعها؟ قال: لا يؤخذ منه أخاف أن يزاد في كتبه. قال معن بن عيسى سمعت مالكاً يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم، ـ لا يؤخذ من مبتدع يدعو إلى بدعة ـ ولا من سفيه معلن بسفهه ـ ولا عمن يكذب في حديث الناس وإن كان يصدق في حديث رسول الله ﷺ ـ ولا عمن لا يعرف هذا الشأن. وقال ابن وهب قال مالك: لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره عى كل حاجة، وقال مطرف سمعت مالكاً يقول: قلما كان رجل صادق لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما أصابه غيره من الهرم

والخرف، وقيل: أرأيت من أخذ بحديث حدّث به ثقة عن أحد من الصحابة أتراه في سعة مال؟ لا والله حتى يصيب الحق وما الحق إلا واحد قولان مختلفان لا يكونان صواباً. وذكر عن ابن المسيب نحوه قال مالك رضي الله عنه: ليس يسلم رجل يحدث بجميع ما يسمع ولا يكون إماماً أبداً، ثم قال: يلبسون الحق بالباطل، وقال: الذي عليه الناس هو المنهج وقد يكون الشيء حسناً وغيره أقوى منه، وقال: إذا قل الكلام أصيب الجواب وإذا كثر الكلام كان من صاحبه فيه الخطأ، وقال: كان ابن هرمز قليل الكلام وكان يسد على أهل الأهواء، وكان أعلم الناس بما اختلفوا فيه من ذلك وكذا كان عبد الرحمن بن القاسم.

وقال إسحاق بن محمد الفزاري: كنا عند مالك فأُثنيَ على رجل ومالك ساكت، فقلت: يا أبا عبد الله ما لك لا تتكلّم؟ فقال: متعت بك كان يقال نعم الرجل فلان لولا أنه يتكلم كلام شهر في يوم، وقال مالك: إذا رأيت هذه الأمور التي فيها الشكوك فخذ من ذلك بالذي هو أرفق. وقال سليمان بن يسار من أهل هذه البلدة: إن سعيد بن المسيّب كان إذا كثر الكلام واللغط والمراء في المسجد أخذ نعليه وقام، وكان مالك رضي الله عنه يكره العجلة في الفتيا وربما ردد السائل وكثيراً ما يقول: لا أدري، وقال: جنة العالم لا أدري فإذا أخطأها أصابت مقاتله، وقال: من إذلاله للعلم أن يجيب كل من سأله، وقال: لا تجوز الفتيا إلا لمن علم ما اختلف الناس فيه، قيل له: اختلاف أهل الرأي؟ قال: لا اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ويعلم الناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث، وقال: ينبغي للناس أن يأمروا بطاعة فإن عصوا كانوا شهوداً على من عصاه، قيل: أيأمر الرجل بالمعروف من يعلم أنه لا يصلي معه ولا يخافه كالجار والأجير؟ وقال مالك: مر ما بدا لك من الناس ومن الناس من يرى قربة فيطيع، قال الله تعالى: ﴿فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤] قيل: أيأمر الرجل بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: إن رجا أن يطيعه فليفعل. وقال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك: ومن الذي ليس فيه شيء، وقال مطرف قال لي مالك: ما يقول الناس فيّ؟ قلت: أما الصديق فيثني وأما العدو فيقع، قال: ما زال الناس هكذا لهم صديق وعدو ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها. وقال رحمه الله: من لم يعدّ كلامه من عمله كثر كلامه، ويقال: إن من علم أن كلامه من عمله قل كلامه ولم يكونوا يهدرون الكلام هدراً ومن الناس من يتكلم بكلام شهر في ساعة. وقال رضي الله عنه: إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير، وقال رضي الله عنه: الفظاظة مكروهة

لقـوله تعـالى: ﴿ولو كنت فـظاً غليظ القلب لانفضـوا من حـولـك﴾ [آل عمـران: ١٥٩] وقال: ﴿فقولا قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤] وقال مـالك رضي الله عنـه قال سعيـد بن عباد: صـلِّ صلاة امـرء مودّع يـظن أن لن تعود، وأظهـر اليأس عمّـا في أيدي الناس فإنه الغنى وإياك وطلب الحاجات فإنه الفقر الحاضر وقد علمت أنـه لا بدّ لـك من قول فإيّاك وما يتعذر منه. وقال مالك: من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهـاؤه، وقال رضي الله عنه: لا ينبغي أن تتكلم بشيء تستحي منه ولا تمشي في حـاجة تستحي فيهـا، ولقد سمعت ربيعة يقـول: سأل رجـل أبا بكـر الصدّيق رضي الله عنـه أن يمشي معه في حاجة، فلما سار في الطريق قال للصدّيق: خذ بنا في غيره فـإن على طريقنـا مجلس قوم استحي منهم، فقال أبو بكر: تصحبني في أمر تستحي منه والله لا مشيت معك أبداً.

وقال مالك رضي الله عنه في لباس الصوف الغليظ وغيره: لا خير في لبسـه إلا في سفر كما لبسه النبي ﷺ لأنه شهـرة، وأنه لقبيـح بالـرجل أن يعـرف دينه بلبـاسه، وقـال: ينبغي للقاضي أن لا يترك مجالسة أهل العلم وكلما نزلت به نازلة ردّهـا إليهم وشاورهم، قيل له: فإن كان عالماً؟ قال: أتراه أعلم من عمر بن الخطاب؟ وقد كان تنزل به النـوازل فيجمـع أصحـاب النبي ﷺ فيسـألهم ثم يقـطع هـو أمـر الخصـوم، ولم يـزل أصحـاب النبي ﷺ على هـذا يسـأل بعضهم بعضـاً عمّـا ينـزل بهم وهكـذا القضـاة وهـذا العمـل المعمول به الذي لا يسع أحداً غيره، ولم يزل أهل العلم والفضل ببلدنا على هذا، وقال مالك رضي الله عنه: حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينـة وخشية، والعلم حسن لمن رزق خيره وهو قسم من الله فلا تمكن الناس من نفسك، وإن من سعادة المرء أن يـوفّق للخير وإن من شقـاوة المرء أن لا يـزال يخطىء ويـزل وإهـانـة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه. وكـان مالـك رضي الله عنه يلبس الثيـاب العدنيـة الجياد والخراسانية والمصرية المرتفعة ويتطيب بطيب جيد ويقول: ما أحبّ لأحـد أنعم الله عليه إلا أن يرى أثر نعمته عليه وخصوصاً أهل العلم ينبغي لهم أن يظهروا مروآتهم في ثيـابهم إجلالاً للعلم. وقد قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: إني لأحب أن أنظر إلى القارىء أبيض الثياب، وقال ابن أبي أويس: كان مالـك من أحسن الناس خلقـاً مع أهله وولـده، ويقول: في ذلك مـرضاة لـربك ومثـراة في مالـك ومنساة في أجلك وقـد بلغني ذلك عن بعض أصحاب النبي ﷺ وكره رضي الله عنـه أن يسئل الـرجل عمـا أدخل بيتـه من طعام وغيره. وقال مطرف بن عبد الله اليساري: كان مالك رضي الله عنـه طويـلاً عظيم الهـامة أصلع أبيض الرأس واللحية شديد البياض إلى الشقرة، وكان لباسه الثياب العدنية الجيـاد وكـان يكره حلق الشـارب ويراه مثلة، وقـال عبد الله بن يـوسف التنيسي: كنا عنـد مالـك

فدخل رجل قد حلق رأسه وشاربه فقال له: يا هـذا لو أخـذك الشيطان ونكـل بك مـا بلغ بك في عقوبتك أكثر ممـا فعلت بنفسك، وكـان رضي الله عنه لا يصبـغ شيبه فبعث إليـه بعض أمراء المدينة فقيل له: لم لا تصبغ يا أبا عبد الله؟ فقال لرسولـه: قل لصـاحبك مـا بقي عليه من العدل إلا أن أصبغ أو نحو هذا. وقال رضي الله عنه: ينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وخصوصاً إذا ذكر العلم، وقال رضي الله عنه: ينبغي للعالم أن لا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه وإن كـان يقع عليـه في ذلك نقص في مـاله فـإن العـامة لا يعـرفون قـدره أو نحو هـذا. وقـال ابن أبي أويس: حضـر رجـل من الأشـراف مجلس مالك وعليه ثوب حرير فتكلم بكلام لحن فيه، فقال الشريف: ترى ما كان لأبوي هذا درهمان ينفقانهما عليه يعلمانه النحو، فسمعـه مالـك فقال: لأن يعـرف ما يحـل لك لبسه مما يحرم عليك خير له من ضرب زيد عبد الله وضرب عبـد الله زيداً. قـال ابن أبي أويس: من اعتقد أن لحن مالك لقلة علمه بالعربية فذلك لقصور علمه، وإنما كان حافظاً يروي الحديث كما سمعه وإن كان ملحوناً لأنه قيـل له في ذلـك فقال: كـان ربيعة يلحن أي ينقل الحديث كما سمعه، وإن كان ملحوناً لأنه قيل له في ذلك يومـاً فقال: لـو شئت أن لا ألحن لفعلت. وقد روي أن مالكاً رضي الله عنه ما جالس سفيهاً قط، فقيل: وهـذه خصلة لا تُعرف لأحد غيـره، وقال عبـد الله بن يوسف: كنـا عند مـالك بن أنس فقـال له رجل من أهل نصيبين: يا أبا عبد الله عندنا قوم يقال لهم الصوفية يأكلون كثيـراً فإذا أكلوا أخذوا في القصائد ثم يقومون فيرقصون، فقال مالك: هم مجـانين، فقال لـه: لا، قال: هم صبيان؟ قال: لا، هم مشايخ عقلاء، قال مالك: ما سمعنا أن أحداً من أهل الإسلام يفعـل هكذا، قـال الرجـل: بل يـأكلون ثم يقومـون فيقرصـون نوبـاً ويلطم بعضهم رأسه وبعضهم وجهه، فضحك مالك وقـام إلى منزلـه فقال أصحـاب مالـك للرجل: يـا هــذا أدخلت والله مشقة على صاحبنا لقد جالسناه نيفاً وثلاثين سنـة فما رأينـاه ضحك إلا هـذا اليوم، وقال إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس حدثني أبي قـال: سـمـع مالـك بن أنس رجلاً ينشد بصوت أشج:

أقـول لـمـفـت بـيـن مـكـة والـصـفـا ... لـك الـخـيـر هـل في وطئهـن حـرام
وهل في ذوات الحجل مهضـومة الحشـا ... عـذاب الـثـنـايـا إن لـثـمـت أثـام
فـقـال لي الـمـفـتي وسـالـت دمـوعـه ... عـلى الخـد مـن عـيـنـيـه بـيض تـوام
ألا لـيـتـنـي قـبـلـت ذاك عـشـيـة ... بـبـطن مـنـي والـمـحـرمـون نـيـام

فصل

قال المؤلف لطف الله به قد بان بما أوردناه من السنّة وكلام التابعين وعلماء الأمّة ومن مزاولة كلام هذا الإمام في العلم والحكمة تقدّمه في الفضل، وتقريره في الغاية وسيادته في العلم وحيازته قصب السباق، وقد اختلف الناس في مولده كثيراً فقال ابن كنانة: ولد سنة ثلاث وتسعين، وقال محمد بن عبد الحكم سنة أربع وتسعين ـ وقال أبو رفاعة عمارة بن وثمة بن موسى ولد سنة أربع وتسعين في ربيع الآخر وتوفي لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة من يوم الأحد ومات يوم الأحد لتمام اثنين وعشرين يوماً من مرضه، وقال الواقدي: عاش مالك تسعين سنة فعلى هذا يكون مولده سنة تسعين، وقيل: ولد سنة خمس وتسعين، وقال سحنون عن ابن نافع: توفي مالك وهو ابن سبع وثمانين سنة ولم يختلف أنه توفي في سنة تسع وسبعين ومائة. قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: ولا أعلم في نسبته اختلافاً بين أهل العلم بالأنساب أنه مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن حيثل بن عمرو بن الحارث وهوذا الأصبح، إلا أن بعضهم قال في عثمان غيمان بالغين المعجمة والياء باثنين من أسفلها وفي حثيل خثيل وحسيل وكان حليفاً لبني تيم بن مرة من قريش، وقال البخاري: هو حليف ابن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله أخي طلحة بن عبيد الله التيمي القرشي.
قال المؤلّف لطف الله به: وشر هذا الخلق وقع في نسبه ما وقع، فقال ابن إسحاق: أنه مولى، وقال غيره من المتأخرين: إنه قرشي وهذا وهم ممن قاله غير ما ذكر أبو عمر، وقد رد مالك على أبي إسحاق قوله في وقته حتى قيل: إنه ربما خرجه لكونه نسبه مولى وردّ عليه أيضاً. وأما من قال: إنه قرشي النسب فهو غلط ظاهر يعرفه كل أحد ممن له دراية بمعرفة الأنساب والناس وإنما علّة هذه الأغاليط أن تحدث في فن لا تعرفه ولا تحسنه ولا تعرف ما يروى منه ولا ما يدعه ولذلك قال مالك رضي الله عنه: لكل علم رجال وإنما يؤخذ كل علم عن أهله. وأما أمّه فقيل: اسمها العالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك من الأزد حملت به فمكث في بطنها سنتين وقيل ثلاث سنين، وخلف من الولد رضي الله عنه ورحمه أربعة: يحيى ومحمداً وحمادة وأم أبيها فأما يحيى وأم أبيها فلم يوص بهما إلى أحد كانا مالكين لأنفسهما وأمّا محمد وحمادة فوصى بهما إلى إبراهيم بن حبيب رجل من أهل المدينة. وأوصى: أن يكفن في ثياب بيض ويصلّى عليه بموضع الجنائز فصلّى عليه عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان والياً على المدينة من قبل أبيه محمد بن إبراهيم وحضر جنازته ماشياً،

وكـان أحد من حمـل نعشه وغسله ابن كنـانة وسعيـد بن داود وكاتبـه حبيب وابنـه يحيـى يصبان الماء، ونزل في قبره جماعة وترك من الناض ألفي دينار وستمائة دينار وتسعـة عشر ديناراً وترك دراهم وكان الذي اجتمع لورثته ثلاثة آلاف دينار وثلاثمائـة دينار ونيفـاً وخلفه في خلفته عثمان بن عيسى بن كنانة. وحج الرشيـد سنة تـوفي مالـك فوصـل ولده يحيـى بخمسمائة دينار ووصل جميع الفقهاء بصلات سنية، ورثـاه الناس لمـا مات بمـراث جمة منها قول امرأة فيه:

بـكيـت بـدمـع وأكف فـقـد مـالـك ... ففي فقـده ضـاقت علـيَّ المسـالـك

ومـا لـي لا أبكـي عـليـه وقـد بـكـت ... عليـه الثـريـا والـنجـوم الـشـوابـك

حـلفت بـمـا أهـدت قـريش وحـللت ... صبيحـة عشـر حين تقضى المنـاسـك

لـنعـم وعـاء الفـقـه والـعـلم مـالـك ... إذا عـد مـفقـوداً مـن النـاس مـالـك

فـصـل

قال المؤلف لطف الله بـه: وأما بلد مـالك هـذا الإمام رضي الله عنـه وأرضاه فقـد تقـدّم من كلام النبـوة والشواهـد البيّنة مـا دلّ على امتيازهـا بالفضـل، واختصاص أهلهـا بالعلم والأمانة والعدل ومعلوم أنها معدن الرسالة ودار الخلافة وبها حطت الرفعـة رحالهـا وألقت فجرانها وهدت انشطانها ومدت أوطانها، وأزهت فيها وأينعت ودامت بها واستقرت وفيها كان بعد النبي الصدّيق شيخ الإيمان ومعـدن التحقيق، ثم الخليفة المـوفّق للصواب أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب الذي مهّد سياسة الأمة وأقام بدعـوته منهـج السنّة، وملك بسيفه ملك القياصرة وشتّت بجيشه شمل الأكاسرة فدخل الناس في الـدين أفواجـاً بعدمـا تلاطم الكفر أمواجاً، ثم تـلاه الخليفة عثمـان فسار بسيـرته في العـدل والإحسان، وكـان يقضي بحضـرة الصحابـة ويعدل في الأجـانب ويحسن إلى القرابـة فانتشـرت بـالمـدينـة الأحكام، وعرفت منهم مسير الحكّام والصحابة بها متوافرون ونقلة العلم عنهم متوارثون، حتى نشـأ بها هـذا الإمـام المنتخب لإحيـاء السنّـة المجتبى لهـدايـة الأمّـة فلذلـك يـرى إجماعهم حجة والاقتـداء بهم عصمة واتبـاعهم سنّة، وقـال: لما قيـل له إن أهـل العراق يقولون السنن عندنا بالعراق ومتى كـان العراق لقـد أشرف رسـول الله ﷺ على الثنية لمـا قفل من غزوة حنين في نحو من اثني عشر ألفـاً مات منهـا بالمـدينة نحـو من عشرة آلاف وتفـرقت ألفان في سـائر البلدان، ممن أرى أن يؤخـذ بقـولهم بعـد مـوت رسـول الله ﷺ وأصحـابه هؤلاء عنهم أو من مـات عنهم الاثنان والثـلاثة، قـال الشيخ أبـو محمـد وقـال ربيعة: ألف عن ألف خير من واحـد عن واحد، وقيـل لمالـك إن شريحـاً قال: لا حبس

على فرائض الله عز وجل، فقال: إنما تكلم شريح فيها يريد المدينة فيرى أحباس الصحابة وينبغي للمرء أن لا يتكلم إلا فيما أحاط به خبراً، وناظر أبا يوسف لما قدم المدينة في مقدار الصاع والمدّ والأحباس وصفة الأذان فظهر على أبي يوسف ورجع أبو يوسف إلى قوله لما تبيّن له أنه الحق وأن معرفة ذلك بالمدينة أمر مشهور متواتر مع قرب عهدهم بالصحابة وزمان الرسالة، وقال مالك: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت يعني أبا حنيفة وفضل علماء المدينة في معرفة الحديث والسنّة وعمل الصحابة وسلف الأمة أمر لا ينكره منكر ولا يعارض فيه معارض. وقد قال عبد الله بن عبّاس: لما أراد عمر أن يخطب الناس بعرفة يريد في قصة الرحم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين لا تفعل ذلك يومك هذا فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاهم وإنهم هم الذين يغلبون على مجلسك فأخشى إن قلت فيهم اليوم مقالة أن يطيروا بها ولا يضعوها على مواضعها، أمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنّة وتخلص بعلماء الناس وأشرافهم فتقول ما قلت هٰهنا فيقبلوا مقالتك ويضعوها مواضعها، فقال عمر: والله لئن قدمت المدينة لأكلمنّ بها في الناس في أوّل مقام أقومه، وكان من كان بغير المدينة من الصحابة إذا شك في أمر لم يقطع فيه حتى يقدم المدينة فسأل عنه، فعل ذلك ابن مسعود وابن عمر وأبو هريرة وغيرهم وقال سليمان بن موسى: إذا كان فقه الرجل حجازياً وأدبه عراقياً فقد كمل. وقال سفيان بن عيينة: من أراد الإسناد والحديث المعروف التي تسكن إليه القلوب فعليه بحديث أهل المدينة، وقال يونس بن عبد الأعلى قال الشافعي: إذا وجدت متقدمي أهل المدينة على كل شيء فلا يدخل عليك شك أنه الحق، وكل ما جاءك من غير ذلك فلا تلتفت إليه فإنك تقع في اللجج وتقع في البحار. وقال عبد الرحمن بن مهدي: السنّة المتقدمّة من سنّة أهل المدينة خير من الحديث يعني حديث أهل العراق، وقال عبد الله بن عبد الحكم سمعت مالكاً يقول: إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته وقال ابن وهب سمعت مالكاً يقول: كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلّمهم السنن والفقه ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عمّا مضى وأن يعلموه بما عندهم وكتب إلى أبي بكر بن حزم أن يجمع السنن ويكتب بها إليه، فتوفي ابن عمر وقد كتب ابن حزم كتباً ولم يبعث بها إليه بعد وكان أبو بكر بن حزم على قضاء المدينة ووليها أميراً، فقال له يوماً قائل: ما أدري كيف أصنع بهذا الاختلاف؟ فقال له أبو بكر: يا أخي إذا وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك أنه الحق.

وقال ابن وهب قال لي مالك: لم يكن بالمدينة قطّ إمام أخبر بحرّتين مختلفين، وقال مالك رضي الله عنه: ما رواه الناس مثل ما روينا فنحن وهم فيه سواء وما طلقناهم

فيه فنحن أعلم به منهم، وسئل عبد الرحمن بن مهدي أي الحديث أصحّ؟ فقال: حديث أهل الحجاز، قيل: ثم من؟ قال: حديث أهل البصرة، قيل: ثم من؟ قال: حديث أهل الكوفة، قالوا: والشام؟ فنفض يده. قال المؤلف لطف الله به: قد علم كل أحد بمستقر العادة وطريق العرب الجادة أن كل أهل بلد أعلم بعوائد أهل بلدهم وأحوال سلفهم وسنن آبائهم وقضايا حكامهم دون من سواهم من غير بلدهم وممن يأتي بعد زمانهم، هذا ما لا ينازع فيه منصف ولا يقوم بغيره حجة لمتكلف وعلم أن المدينة معدن العلم وينبوع الحكمة ودار السنّة، وأن مالكاً نشأ بها قبل تمام المائة سنة والعهد قريب من عصر النبوة في خير القرون وثلاثة من الصحابة بعد ينظرون، وهم أبو الطفيل وعامر بن واثلة وإنه إنما مات سنة يوم مائة أو نحوها، ومحمود بن الربيع بن سراقة الأنصاري الخزرجي لأنه مات سنة تسع وتسعين، وقيل سنة ست وتسعين، ومحمود بن لبيد بن رافع الأنصاري الأشهلي لأنه مات سنة ست وتسعين فاشتغل مالك بالعلم في حال صغره وبذل جهده في طلبه وبالغ في تحصيله وتصدى لتدريسه والفتوى فيه مدة عمره مع طول حياته ووفور عقله وقوة حفظه وشدة حرصه في تعلمه وتعليمه، وقد شهد له به جلة شيوخه وحفاظ زمانه فكيف يعتقد مع هذا كله من له نسب أو دراية وقلب أن غيره ممن لم يسكن هذه البلدة أعرف منه بالسنّة والأحكام وأدرى بالحلال والحرام هذا مما لا تسيغه العقول ولا تقتضيه القواعد والأصول، مع أنا لا ننكر أنه قد يعزب عن أهل المدينة بعض السنّة وشذّ عنهم ما ينفرد به بعض الصحابة عن الجملة، وإنما كلامنا عن المهيع والطريق الجادة المشرع، أما غير أهل المدينة من سائر البلدان فلم تكن السنّة بها قصة متواترة وإنما كان يخرج إليهم من المدينة آحاد العلماء معلمين أن بعض الصحابة مؤمرين أو غزاة أو مجاهدين، فلذلك كثر الرواة بالعراق وشاع بهم الخلاف وقلّ الوفاق واختلفت فيه الأهواء وتباينت الآراء، وكثرت الفتن ودامت المحن وتفرقت الشيع وتراكمت البدع وقد أخبر بذلك المصطفى وأنذر به وكفى.

قال عبد الله بن عمر: رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق ويقول: **«ها إن الفتنة هٰهنا من حيث يطلع قرن الشيطان»**. وقال كعب الأحبار لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه لما أراد الخروج إلى العراق: لا تخرج إليها يا أمير المؤمنين فإن بها تسعة أعشار السحر وبها فسقة الجن وبها الداء العضال، قال مالك: والداء العضال الفساد في الدين يريد مالك رحمه الله أن ذلك مراد كعب في قوله هذا وإلا فالداء العضال هو الذي تعيى الأطباء عن معالجته، وكذلك أعيت أمراء العراق وكثر فساد الخلفاء والملوك في إصلاح أهله ورفع مفاسده فكان ما أشار إليه رسول الله ﷺ من ذلك، فكان منشأ الفتنة في هذه

الأمة من العراق لأن منها ثارت قتلة عثمان وإن كان معهم في ذلك بعض أهل مصر وهي أوّل فتنة وقعت في هذه الأمة بين الإسلام، وبها وقعت الملاحم العظام بين المسلمين كوقعة الجمل وصفّين، ومنها خرجت الخوارج وفيها اعتزلت المعتزلة وظهرت القدرية وقامت الجهمية وبها كان المختار بن أبي عبيد الكذاب والحجاج بن يوسف ومقتل الحسين بن علي وتشيّع الشيعة، ومبدأ دين القرامطة المجوس في هذه الأمة وظهور شهادة الزور في زمن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حتى قال: والله لا يوسر رجل من المسلمين بغير عدول. ومن قضائه رضي الله عنه بدأ فيهم الفساد وكثر الطعن منهم على الولاة فاشتكى أهل الكوفة منهم سعد بن أبي وقّاص إلى عمر بن الخطاب، وقال: إنه لا يحسن أن يصلي فعزله عنهم وولى عمار بن ياسر وناهيك من عمّار فاشتكوه إليه وقالوا: إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة ولا يدري علام استعملته، فعزله وولى عليهم أبا موسى الأشعري بعدما طلبوه منه فما أقام عليهم إلا سنة فشكوه وطلبوا عزله وقالوا: إن غلامه تجر في حبسنا فعزله عنهم وأعياه أمرهم حتى قال: من غد يرمي من مائة ألف لا يرضون بوالٍ ولا يرضى عليهم وال، قال واستشار فيمن يولي عليهم وقال: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي مسددٍ؟ فقال له المغيرة بن شعبة: وقد كان عزله عن البصرة أما الضعيف المسلم فإسلامه لنفسه وضعفه عليك وأما القوي المسدد فسداده لنفسه وقوته للمسلمين، فولّاه عليهم وقال: يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار ثم كان من شأنهم ما ذكرناه من قتل عثمان، ثم لما خرج إليهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقي من اختلافهم عليه شدائد وآثار، وبافتراقهم عنه مفاسد وخرجت عليه الخوارج منهم وتكاسلت بقيتهم عن النهوض معه إليهم وتخاذلوا عن نصرته واستهانوا لخلافته وضاق ذرعه منهم واشتد غضبه عليهم حتى قال: اللهم إني قد مللت منهم وملّوا منّي، اللهم ابدلني خيراً منهم وابدلهم شرّاً مني، فأجاب الله تعالى دعوته فيهم بعد حين وسلط عليهم شراً من الشياطين، ثم بعد ذلك قامت منهم طائفة بدعوة الحسين فراسلوا له وبعثوا إليه ليبايعوه، فبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب فبايعه منهم خلق كثير وجمّ غفير نحو من عشرين ألفاً، فلما قدم عليهم الحسين خذلوه ونكثوا بيعته وأسلموه فلما قتل مع أهل بيته وفات الأمر في نصرته ندموا على خذلانهم له وتركهم القيام معه، فعادوا في طلب دمه وراموا نصرته بعد عدمه فقاموا مع المختار بن أبي عبيد الكذاب وفتحوا للبغي أكبر الأبواب فلم تزل فتنهم تتشعب وعامّتهم تتشغب حتى سلّط الله عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي فسامهم الخسف وأوردهم العسف، ومكث فيهم عشرين سنة يحكم فيهم بخلاف كتاب الله تعالى ولا يراقب فيهم

ذمة الله. وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد أوصى بالأنصار أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وإني أفعل فيكم بخلاف وصيته فيهم فلا أقبل من محسنكم ولا أتجاوز عن مسيئكم، فقتل خيارهم وعلماءهم وأذلّ رؤساءهم وأشرافهم واستباح أموالهم وأفسد أحوالهم حتى أخذه الله أخذة الظالمين، وطهّر منه الأرض وأراح المسلمين فلهذا الفتن بالعراق وأشباهها وضعف السنّة بها وقلّتها وغلبة الرأي على أهلها كانت مذمومة عند أهل المدينة وعلماء السنّة حتى كان يقال بالمدينة: اتركوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذّبوهم.

وقدم أنس بن مالك من العراق فدخل عليه أبو طلحة الأنصاري وأُبيّ بن كعب فقرب لهما طعاماً قد مسّته النار فأكلوا منه، فقام أنس فتوضأ فقال له أبو طلحة وأُبيّ بن كعب: ما هذا يا أنس أعراقي؟ فقال أنس: ليتني لم أفعل. وسأل ربيعة بن أبي عبد الرحمن سعيد بن المسيب، كم في إصبع من أصابع المرأة؟ فقال سعيد: عشر من الإبل، فقال له: كم في إصبعين؟ فقال له: عشرون، فقال له: كم في ثلاثة؟ فقال له: ثلاثون، فقال له: كم في أربعة؟ قال: عشرون، فقال ربيعة حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ فقال له ربيعة: بل عالم مستثبت أو جاهل متعلم فقال له سعيد: هي السنّة يا ابن أخي فانظر حال أهل العراق عند أهل المدينة في عصر الصحابة والتابعين، فما ظنّك بهم بعد انقراض الصحابة والتابعين ولذلك لما صارت الخلافة إلى بني العباس وسكنوا العراق وكانوا علماء أرادوا إظهار السنّة بالعراق، ونقل علماء المدينة إليها وطلبوا ربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصاري وغيرهما، وارتحل إليهم هشام بن عروة وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ومحمد بن إسحاق صاحب التيسير والمغازي، ومن حينئذ بدأ ظهور السنّة بالعراق ونشأ فيهم علم الحديث فطلبوه وبحثوا عنه. قال ابن حبيب قال لي مطرف: لم يخل نفسه خليفة من خلفاء بني العباس بالعراق من مدني سيقضونه قضاء العراق ويتخذونه وزيراً ومشيراً بالسنّة إذا أرادوا العمل بها، ولقد بعث أبو العباس ساعة ولي إلى ربيعة بن أبي عبد الرحمن وألزمه نفسه وزيراً ومشيراً وتأفف من ذلك واستعفاه كراهة للعراق، فأعفاه وانصرف إلى المدينة فقيل له: كيف رأيت العراق وأهلها؟ قال: رأيت قوماً حلالنا حرامهم وحرامنا حلالهم، وتركت بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هذا الدين، قال ابن حبيب وقال لي مطرف أخبرني مالك أن ربيعة قال له لما بعث إليه أبو العباس: إن بلغك أني أفتيت بفتيا أو تحدّثت بحديث ما كنت بالعراق فاعلم أني مجنون. قال الشيخ أبو محمد وقال ربيعة: كان النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم، وقال وكيع:.

والله لكأن النبي الذي بعث بالحجازليس بالنبي الذي بعث إلى أهل العراق. قال الشيخ أبو محمد: وقدم حماد بن زيد المدينة وكان سيداً فراح إلى مالك فقال: يا أبا عبد الله حللنا المدينة فما أتانا أحد من أصحابك، فقال له مالك: أنا أمرتهم بذلك، فقال له: ولم؟ قال: لأنكم يا أهل العراق تحبون أن تكتبوا عمّن لا شهادة له عندنا فكذلك انكم تفعلون في بلدكم فرجع حماد فأسقط عامة علمهم. وقال مالك لرجل من أهل الكوفة: كم يأخذ أولونا عن أوليكم فكذلك لا يأخذ آخرونا عن آخريكم. وقال عبد الرحمن بن مهدي: لا تكاد أن تهجم على إسناد من أسانيد أهل الكوفة لا تجد له أصلاً إلا هجمت، وقال مالك: هي دار الضرب يضربون بالليل ما ينفقون. وقال الشيخ أبو محمد: استأذن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عمر بن عبد العزيز في الخروج إلى العراق فقال له عمر: إذا قدمت العراق فأقرهم ولا تستقرهم وعلّمهم ولا تتعلّم منهم وحدّثهم ولا تسمع حديثهم. وقال ابن شهاب: يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود في العراق ذراعاً ومثل هذا وأشباهه من كلام المدنيين في ذمّ العراق كثير، ومع ذلك فلا ننكر أنه كان بالعراق علماً في الدين ورواية في السنّة ولا ندّعي العصمة لإمامنا ونفي الصواب عن غير علمائنا، لكنّا ندّعي الفضل له والترجيح لمذهبه ونقول: إنه أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً وقد استدللنا لذلك بما فيه مقنع وبلاغ لمن ينصف ويعرف الحق على نفسه فيعترف.

فصل

وأما غير أهل العراق من سائر البلدان كاليمن والشام ومصر وإفريقية والأندلس فكلّهم معترف بفضل علماء المدينة وحجّة أصولهم، وتقدّم حديثهم على حديث غيرهم لا ينازعون في ذلك ولا يعادون فيه وليس عندهم من الرأي والخلاف على أهل المدينة ما عند أهل العراق من ذلك، والسبب في خلاف أهل العراق لأهل المدينة: أن أول ما عظم جمع المسلمين وكثر عددهم في صدر الإسلام بالعراق نبذوا البصرة والكوفة في أوّل خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه، ونصروهما وعظمت جيوش المسلمين بهما وكثر جمعهم فيهما وفتحت فيهما سائر بلاد العراق وخراسان وما وراء ذلك، وأوّل ما انتقلت الخلافة من المدينة إليها وكانت بها أكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقّاص وأبي موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة وعمّار بن ياسر وأنس بن مالك وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ولم يك مثل ذلك في غير العراق من البلدان كاليمن والشام ومصر وإفريقية والأندلس، وكان هذا السبب في قوّة نفوس أهل العراق حتى خالفوا أهل

المدينة في كثير من العلم ظنّاً منهم أن السنّة قد انتقلت إليهم وصارت عندهم، وعلموا ممن صار إليهم من الصحابة وإنه وجيه لولا أنه مرجوح لما قدمناه ومحجوج بما قرّرناه ولأن من صار إلى العراق من الصحابة إنما كان جزءاً من جلّ وبعضاً من كلّ وأفراداً من جمع ورشاشاً من نبع، وانتقال الخلافة إليهم إنما كان في حيزى افتراق من جماعة المسلمين وفتن عظيمة بين الموحدين وشتات جعل بين قلوبهم واشتغالهم بكثرة جسد فيهم، ولا يرد علينا ما وقع بالمدينة من قتل عثمان ولا من سرف ابن عقبة من القضبان لأن ذلك لم يكن من أهل المدينة ولا فيما بينهم ولا دام فيهم ولا فرق جمعهم، وإنما كان بغياً عليهم وظلماً ممن أساء إليهم والله يثيبهم بفضله ولا يضيع أجرهم بعدله وهو العليم الحكيم، فإن قيل: فقد خالف الشافعي مالكاً وليس من أهل العراق، وشاع مذهبه وانتشر في الآفاق قلنا: الشافعي رضي الله عنه إمام في العلم مقدّم في الفضل لا ينكر ذلك عارف ولا يخالف فيه متناصف وذلك شيخه وإمامه والسنّة مذهبه وقوامه، ومن شهد لمالك في التقدّم بمعرفة الكتاب والسنّة وفضله على غيره من الأئمة ومخالفته له في بعض المسائل لا يقدح في إمامة مالك ولا في فضل الشافعي، وإنما مخالفة الشافعي لمالك كمخالفة ابن القاسم وأشهب وابن وهب له وكمخالفة أبي يوسف ومحمد بن الحسن لأبي حنيفة، ومخالفة المزني وغيره من أصحاب الشافعي وذلك لا يقدح في فضيلة التابع ولا في إمامة المتبوع لأن كل واحد منهم مجتهد في نفسه قائم بما يخالف فيه بحجته، وقد خالف مالك بن أنس عمر بن الخطاب في غير شيء من أحكامه مع جلالة قدر عمر وسيادته ورسوخه في العلم وإمامته، ولا يظن من له أدنى عقل أو ينسب إلى شيء من يقين وفضل أن مالكاً يبلغ قدر عمر ولا قريباً من عمر ولا أن مخالفته له في بعض المسائل مما يقدح في إمامة واحد منهما أو يحطّ شيئاً من عظم رتبتهما، فإن قيل: ليست مخالفة الشافعي لمالك كمخالفة غيره من أصحابه له ولا كمخالفة صاحبي أبي حنيفة، لأن مذهب مالك وسائر أصحابه غير الشافعي مذهب واحد يحكم تارة بقول هذا وتارة بقول هذا وذلك مذهب أبي حنيفة وصاحبيه.

وأما أصحاب الشافعي وأتباعه فلا يرجعون إلى قول مالك في شيء ولا يعرجون عليه بحال، قلنا: هذا لا يدلّ على نقص مالك ولا فضل الشافعي وليس هو من مالك ولا من الشافعي وإنما هو من أتباع الشافعي الذين قلّدوه واقتصروا على قوله، ولا ينظرون في رأي سواه ولا تعرفوا بغير مذهبه ولو نظروا في قول الإمامين وتعرّفوا بالمذهبين لشهدوا بما شهد به إمامهم وعرفوا الفضل لمن عرفه له أسلافهم، ولو قدحت مخالفة الشافعي مالكاً وتقليد أصحاب الشافعي له دون مالك في مالك لقدحت مخالفة أحمد بن حنبل للشافعي

وتقليد أصحاب أحمد له دون الشافعي لأن أحمد بن حنبل أحد تلامذة الشافعي، كما أن الشافعي أحد تلامذة مالك وقد خالف أحمد بن حنبل الشافعي في كثير من المسائل وقلّده أصحابه فيها واقتصرا على قوله ومذهبه كما اقتصر أتباع الشافعي على قول الشافعي ومذهبه دون غيره، وإنما أتباع الشافعي في ذلك كأتباع ابن القاسم المالكية الذين يقدمون قوله على قول مالك ولا يعدلون عنه لقول مالك إلا إذا لم يجدوا فيه نقلاً عنه ولا أصلاً يُقاس عليه منه وكبعض المتأخرين المقلّدين لأتباع الأتباع عند عدم نصوص الأصول، ويعتقدون في ذلك على التاريخ بالتدريج ويتركون أقوال الأئمة المجتهدين من علماء الأمة كأبي حنيفة والشافعي، حتى لو قيل لأحد من المتأخرين المالكيين من العلماء المقلّدين قال محمد بن إدريس الشافعي وأبو حنيفة الكوفي: كذا، وقال اللخمي أو ابن بشير من رواية كذا كذا إن الحق فيما قال اللخمي أو ابن بشير لا فيما قاله الإمام العالم المجتهد الكبير، وكذلك لو قيل لشافعي متأخّر قال إمام الحرمين أو الغزالي من رواية كذا وقال مالك بن أنس كذا، كذا إن الحق في قول الغزالي أو الكوفي لا في قول الإمام المدني، هذا ومثله من التقليد جحود وإنكار لفضل الأئمة ومحض جحود فعلى العاقل المنصف أن يميّز بعقله ويعرف الفضل لأهله ويضع كل أحد في محلّه ولا يطرد التقليد فيزلّ ولا يتبع الهوى فيضلّ، وأن الهادي رسول الله والمقصود طاعة الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل

قال المؤلف لطف الله به: وأما حسن نظر هذا الإمام لهذه الأمة وسداد رأيه فيها وتوسعه في تفتح أبواب المصالح لهم وشدة نصيبه في سدّ أبواب المفاسد عنهم ومعرفته بأحوالهم وقوّة خبرته بتصرفاتهم في معاملاتهم، فهو في ذلك على أوضح المناهج وأحسن ما يكون لهم من المخارج وأقرب ما تصلح به أحوالهم وأشدّ ما تنضبط به أفعالهم وأوفق ما تقوم به سياستهم وأشدّ ما تمكن به حراستهم. وقد كنت نويت أني أذكر شيئاً من ذلك وأنبّه عليه وأعرّف ببعضه وأشير إليه، ثم رأيت أن ذكر ذلك يستدعي بسطاً وتطويلاً وشرحاً وتعليلاً وتقرير أصول وتهذيب فصول ورداً على المخالفين واحتجاجاً على المناظرين، ونخرج عن غرضنا الذي أردناه بهذه العجالة والمعنى الذي لأجله وضعنا هذه الرسالة فاقتصرنا على ذلك خوف الاستطالة، وتركناه خشية الملالة لكن من أراد ذلك بأدلّته واعتباره ببسط أسئلته فليتأمّل مذهبه مع مذاهب مخالفيه وليحقّق نظره في بيان الحكم ومعانيه، ليقصد ذلك في أحكام المياه والنجاسات والمطاعم والعبادات والإيمان

والمعاقدات والبيوع والمعاملات والأقضية والجنايات والتعزير والعقوبات، فإنه يجد مذهبه في حكم الماء والمطاعم وما يتعلق بالنجاسة على التوسعة والتيسير والتساهل من غير تعسير، ومن الإيمان جارياً على مقتضى الأسباب والمقاصد وتتقيد عند إطلاقها بالعرف والعوائد فتعقد عند العقود بكل قول أو فعل يفيد المقصود، ويشدد في سدّ أبواب الربا والمحرمات ويمنع فتح كل باب يؤدّي إلى الممنوعات، ويوسّع في باب الغرر أكثر من غيره ويقيد ذلك بالعرف عند أهله ويستفهم الخصم في المحاكمة ويسأله عن سبب المخاصمة، ونشهد عنده العوائد كالبيّنة ولا يمنع دعوى غير بيّنة وشدد على ذي الشر والنكاية، وليس للتعزير عنده نهاية ويتجافى على ذي الذلة والعلّة لا سيما من كان من ذوي المروءة والعفّة، ويتعبّد بالألفاظ في العبادة ولا تتغير عنده العادة.

قال الفقير إلى رحمة مولاه عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي لطف الله به: نجز ما أردناه من ذكر ما حضرنا من فضائل هذا الإمام وكمل جميعه على الوفاء والتمام، فلاحت مشرقة في أُفق المعالي كبدر التمام وانتظمت لآلىء حسن عقدها أحسن انتظام وتبسم عرف نسيمها فأبرأ من السقام، وتلألأ بدر اتساق محاسنها فاذهب الظلام، فالحمد لله على تمام ما ألّفناه من حسن الكلام وصلى الله على سيدنا محمد نبيّه وعبده وآله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.